كرّاسات المركز

سلسلة يصدرها مركز البحث العلمي
والتقني لتطوير اللّغة العربيّة

صالح بلعيد

الخليل بن أحمد عبقريّ العرب

العدد الأوّل

2006

رقم الإيداع القانوني : Dépôt légale : 2006-3326

ردمد : ISSN : 1112-735X

ردمك : ISBN : 9961-9660-2-3

الفهرس العام

المقدّمة 5

الخليل وسيرته 11

الخليل عبقريّ العرب..... 17

الخليل وسيبويه 24

الخليل وعلم المعاجم 30

الخليل وأصول النحو 37

الخليل والنظريّة النحويّة المعرفيّة 45

الخليل وعلم التعمية..... 57

الخليل والقراءات القرآنيّة..... 59

الخليل والاحتجاج بالحديث النبويّ الشّريف 60

الخليل وعلم العروض 63

الخليل ونظم الشّعر/ قول النّثر الحكميّ 65

الخليل خارج الجزيرة العربيّة..... 78

الخاتمة 81

المقدّمة

قيل في مأثورنا : إنّ العرب أنعم الله عليهم بثلاثة لا مثيل لهم في التاريخ : **عمر بن الخطاب الخليل بن أحمد، عمرو بن بحر الجاحظ**؛ فعمر بن الخطاب ثالث خليفة لنبي كريم صاحب رسالة سماوية عظمى نهائية، عمر (رض) الذي صدق فيه قول الرسول محمد ﷺ اللهمّ أعزّ هذا الدين بأحد العمرين عمر الذي يفري فريه، عمر الفاروق ذو مهابة كبيرة من كثرة الحقّ الذي جعله يعلو فوق الجميع ولا يُعلى عليه، وقال فيه الرسول ﷺ : لو كان رسول بعدي لكنت أنت يا عمر/ إنّ الشيطان يخاف منك يا عمر... كما صنّفه مايكل هارت* صاحب كتاب: (**الخالدون المئة أعظمهم محمد**) في الرّتبة الواحدة والخمسين من عظماء العالم. وأما الخليل فقد أنصفته المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) هذه السنة (2006) بأنه من الشخصيات العالمية** التي يحقّ للعالم أن يحتفي بها، ويخلّد آثارها التي لا مثيل لها في العالم. فالخليل عالم كعبه عال في علوم النحو واللغة والشعر والعروض، وقد قيل فيه الكثير ويجدر بي في هذه المقدمة الإشارة إلى مقولة أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي: والخليل بن أحمد أوحد

---

* - عالم أمريكي صاحب هذا الكتاب وترجمه: أنيس منصور.

** - اختارت المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم ثلاثة من العرب كلّ في اختصاصه: الخليل بن أحمد لغوي. عائشة الباعونية شاعرة. ابن خلدون عالم اجتماع. وعدتهم من الشخصيات العالمية.

العصر وقريع الدهر، وجهبذ الأمة، وأستاذ أهل الفطنة الذي لم يُرَ نظيره ولا عُرف في الدنيا عديلُه، وهو الذي بسط النحو ومدّ أطنابه وسبَب علله، وفتق معانيه، وأوضح الحجاج فيه، حتى بلغ أقصى حدوده وانتهى إلى أبعد غاياته[1]" وقال عنه أبو الطيب اللغوي: إنه لم يكن قبله ولا بعده مثله، ولم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى منه؛ فكان أعلم الناس، وأفضل الناس وأنقى الناس، فكان مفتاح العلوم ومصرفها. وأذكر أنّ الأستاذ صفاء الخلوصي قال: لو كان الخليل في قرننا هذا لسبق العرب غيرهم من الأمم في الوصول إلى القمر. وأما الجاحظ فهو الموسوعة العربية التي ما ترك علماً إلا وأفتي فيه، وتنتهي حياته وسط مخطوطاته وكتبه، فمات عمرو بن بحر جسداً وبقي (البيان والتبيين/ الحيوان...) شواهد على موسوعية رجل عربي عاش في القرن الثالث الهجري يسمّى الجاحظ.

أردت التوسّع في البحث عن شخصية **الخليل** العالم الموهوب، لأعكس بقوّة حرارة المحاضرات الكثيرة التي كنتُ ألقيها في ملتقيات الذخيرة العربية، وخاصة بعد تأسيس جمعية اللسانيين الخليليين بالجزائر؛ والتي تشرّفت بإدارة أمانتها العامة، كما أبتغي التدقيق في منظومة فكر الخليل وعبقريته الفذّة، وأنا أقرأ أفكاره اللغوية في مجال النحو والصرف، ورأيت

---

[1] - استدراك الغلط الواقع في كتاب العين. القاهرة: مطبعة الحلبي (المقدمة).

أنه يمكن اعتمادها وبنجاح في وضع منطاقيات عربية، تلبّي مستجدات التكنولوجية المعاصرة في مجال البرمجة والعدّ وإجراء التصاريف وتصحيح الأخطاء، علماً أنه سبق لي أن كتبتُ عن فكر الخليل في كتابي الموسوم: **اللغة العربية العلمية**، متحدّثاً عن النظرية الخليلية الحديثة، وكيفية الاستفادة منها في ميدان الإعلام الآلي. ولقد ترسّط عندي فكر **الخليل العبقري** عندما حضرت وحاضرت في **الندوة الدولية** التي نظّمتها وحدة الدراسات العمانية في جامعة آل البيت بالأردن، بالتعاون مع سفارة سلطنة عمان بين 27-29 جمادى الآخرة 1427هـ الموافق 23-25 تموز (جويلية) 2006 وكان شعارها: **ندوة الخليل بن أحمد الفراهيدي الدولية**. في هذه الندوة العالمية دافعت عن ألمعية الخليل في علوم اللغة، من خلال محاضرة موسومة (**خليلي يناجي الخليل**) فقد دبّجت المحاضرة بترانيم مقامية يستدعيها المقام، وهي التي طوّرتها إضافة وحذفاً، وأخذتْ عنواناً جديداً وهو (الخليل بن أحمد عبقري العرب) وهذا ما تقرأه في هذه الكراسة التي يعمل (**مركز البحوث التقنية لتطوير اللغة العربية ببوزريعة**) على إخراجها للدفع بمضمون اللغة العربية إلى مقامها الذي تستهله ضمن اللغات العالمية الكبرى، وهذا بالعودة إلى أصولها، وشحذ تلك الأصول بما استجدّ من بحوث علمية متطوّرة في اللغات الأجنبية. وبحضوري في الندوة الدولية حول الخليل بن أحمد في الأردن، تكوّنت لديّ قناعة خاصة من المحاضرات التي أُلقيت في الندوة بأنّ الخليل عظيم وجهبذ كبير

حيث تصل بعض المحاضرات بأن تجعله من الصالحين والتابعين الأتقياء وهذا بالحجّة التي لا تُقهر، فكيف لي أن أصفه أو أدبّج فيه كلاماً يفيه حقّه ولذلك لا أملك اللغة التي يمكن التعبير عنه، وأنا من أنا باحث بسيط كما قد أصيب، قد أخطئ، ومهما قلت في الخليل فلن أعطيه الذي هو أهل له، وخاصة وإني لست بشاعر ولا أملك سجعَ الكهّان؛ والأحرى بي أن أكون شاعراً متعبّداً في محراب علم الخليل؛ لأكون معبّراً وفصيحاً وناقلاً لواقع، فلذا أقف عاجزا عن القول، رغم أني أموت وأهيم حبّاً في مبدع قواعد اللغة وباني الأركان، ومن هنا تراني أنسج بعض المقامات أحياناً في عبقري اللغة العربية الخليل تبرّكاً في علمه الجبّار، وأمزج بين خطاب اللغة وخطاب البلاغة الذي اقتضاه الحديث عن الشيط الهُمام، فأناجيه أحياناً عند استنطاق أخباره وأعماله، وأتعبّد في محراب أقواله التي أراها تنزل قطرات من ذهب ومسك، فيا لها من شيط ينثر الدُّرر دون مقابل، فهل من مشترٍ يدفع الرخيص ليأخذ النفيس. إيهٍ يا شيخي الخليل كيف أناجيك وأمثالك كانوا وما عادوا ولن يعودوا فجاد بهم الزمان مرّة، وكانت طفرة الوقت التي كانت وما عادت. شيخي الخليل أناجيك وأنت عبقري قلّت أمثالك في الأنام، فلقد أحببتك من خلال محاضرات أستاذي عبد الرحمن الحاج صالح الذي أدخل بعضاً من أفكارك في ذهني وصادفت أن لقيت المكان المناسب من خلال مطالعاتي لأعمالك التي أراها معاصرة تعيش واقعها، وأعجبت بتواضعك وبما تحمله من نفس سامية

وحكمة واعية، فأصبحت عندي حبلاً شامخاً، فأنتَ لستَ من أولئك الذين يُصلّون ويصومون لأمر خاص، فإذا انقضى ذلك الأمر عادوا إلى ما كانوا عليه. ومن ذلك سرتُ على هديك وأخذتُ من أصولك، وعليها تأتيني إلهامات التصوير والإبداع. وعندما أكتب عنك وعن طلابك المبدعين تنثال بعض التعابير المنمّقة انثيالاً، فتجد في ثنايا المكتوب مكاناً وتفرض وجوداً، فهي المدح على من جعلوا لنا النحو عماداً وستوا لنا سُنناً حفظت اللغة دراية وتفصيلاً، ان فعلُك عظيما وكنتَ في إقامة القواعد حازماً مضبوطاً، وأنت العالم الزاهد الوليّ الصالح التقي النجيب، أراكَ بدرَ التمام والكمال، وأنتَ وحيد دهرك الذي ليس لك صورة ولا مستنسط، فأنتَ أنتَ، ولن يكون غيرُك أنتَ، إلى درجة أن قال فيك سفيان الثوري: من أحبّ أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد. فأنت يا أيّها الخلّ الخليل خلقتَ من الذهب لكثرة عبادتك وصلاحك وزهدك وغزارة علمك، وحسن أدبك، وفضلك على العربية وأهلها الذي لا يقدّر بأغلى النفائس.

وبهذا العمل أناقش وأحلّل اثنتي عشرة قضية (12) ذات العلاقة بعلم الخليل بن أحمد في صورة جديدة، بغية الوصول إلى بناء منظومة أفكار حينية متحرّكة وربّما أمهّد لمعطيات الدرس الحضاري اللغوي في حركية اللغة العربية عند قدمائنا، وكيف يمكن أن تلبّي معطيات

الواقع المعاصر عندما يقع الاهتمام بها وفي نفسها وبنفسها، وهذا عبر الجانب العقلي الداعي لرؤية شاملة تأتي من اتساق الكلام ونضمه ودخوله في علاقات متمثلة بالتكامل والتماثل والانسجام والتوالد. وربما يكون إلهامنا ببعض علمائنا العباقرة المجدّدين دافعاً لتمثل الحاضر كما تتطلّبه المضايقات التقنية المعاصرة.

وعلى هدي هذه المنهجية، أحاول معالجة هذه القضايا بنوع من التفصيل فيما يقتضيه المقام من التحليل، وبما لا يخرجني إلى التهويم ولا يجعلني أعيد المكرور، وأنا له من الناكرين، فأرجو أن أكون من الذين يفتحون شيئاً جديداً في فكر الخليل، فبُعداً للتكرار وتخمة المقال والمزايدة في الأقوال.

هذا عملي المختصر في عبقري العرب، وعبقري العلماء، أرجو أنني قد وفقتُ على تجلية بعض الجوانب من صورة الخليل في تراثنا العربي الأصيل، كما أتمنى أن يلقى القبول، ويفيد العموم بلّه الخصوص.

والله وليّي، فنعم المولى ونعم النصير.

تيزي وزو في : 5 أكتوبر 2006

الخليل وسيرته

أتحدّث عن أبي عبد الرحمن الخليل بنِ أحمد بن عمرو بن تميم بن فرهود بن فهم بن مالك بن نضر الأزدي اليحمدي العربي، فماذا عساني أغرف من بحره اللّجاج، فلا أملك إلا هذا الاختصار: إنّ الشيط الخليل المولود **بعُمان** (سلطنة عُمان) سنة 100هـ175 هـ والمتوفّى بالبصرة سنة 715م -790م، فهو العربي نسباً العراقي البصري موطناً ودفيناً، وتنصّ المراجع على أنه استقرّ بالبصرة ولم يغادرها إلا مرة واحدة عندما ذهب إلى طالبه الليث بن المظفر بخراسان، ولم يُقم كثيراً، إضافة إلى تلك الخرجات إلى الحجّ والعمرة ولمشافهة أعراب نجد والحجاز وتهامة. نشأ إباضياً بحكم مذهب عشيرته، ثمّ أصبح سنّياً محدثاً فقيه ثبْتاً، بعدما لازم حلقة أيوب بن أبي تميمة السختياني ت 131هـ، وهو عالم بصري ثقة ثبتٌ حجّة من كبار فقهاء البصرة وكان أيوب لا يحبّ اللحن في الحديث. وبلزوم حلقة السختياني حدث له تحوّل كبير في عقليته، فاشتهر بالنباهة والدليل، ولا شكّ أنّ السختياني أثّر فيه أيّما تأثير سواء في علمه أو في مذهبه. كما أنه كان يلزم حلقات علمية أخرى يستمع ويأخذ يفيد ويستفيد، وما كان يهمّه نوع الأصحاب الذين كانوا يجلس إليهم أو يجالسهم أمام الشيوخ ولقد قال خلف بن المثنى: "كان يجتمع بالبصرة عشرة في مجلس لا

يُعرف مثلهم في تضاد أديانهم: **الخليل بن أحمد ستي**، والسيد الحميري رافضي، وصالح بن عبد القدوس ثنوي وسفيان بن مجاشع صفري وبشار بن برد خليع ماجن وحماد عجرد زنديق، وابن رأس الجالوت يهودي، وابن نظير متكلّم، وعمرو ابن أخت المؤيّد مجوسي، وروح بن سنان الحراني صابئي[2]".

هذا هو التعريف الوجيز بسيرة الخليل بن أحمد الخاصة الذي فارقنا جسداً منذ خمسَ عشرةَ سنةً ومائتين بعد الألف (1215) ولكن لمّا يمت علمه وفكره، حيث امتدّ بأقطابه الميامين، فسيرته لم تنتهِ بموته الجسدي، فهو حيٌّ حييَ بعلمه وعلم حواريه الحاضرين، كما علا شأنه أيما علوَ بعبقري كبير أقلّ منه كعباً وقامة هو سيبويه العظيم، الذي عمل على إخراج أماليه في سفر كبير يتجاوز الألف ورقة مبتغاه دراسة اللغة، واستخراج قوانينها العامة وجمع مفرداتها، فنهج الطريق لطلابه لأخذ النحو على أنه مجموعة القواعد والأصول العامة، وكما نزجي الفضل في هذا المقام لأبي الحسن الأخفش الذي أطلق على عمل سيبويه اسم (الكتاب) تحرّجاً من أن يعطي له اسماً لم يعطهِ سيبويه، ويتعدّى فضله أكثر بتنبيهه إلى قيمة الكتاب، الذي لا مثيل له في اختصاصه فأجازه وباركه، وقال عنه : **إنه الغاية في استخراج مسائل النحو**

---

[2] - الصفدي، الوافي بالوفيات، تح: دوروتيا كرافولسكي، ط فرانز شتاينر، 1411هـ ج13، ص 89.

وتصحيح القياس. ويصل صداه كلَ الأصقاع حتى قيل فيه العجب ومن ذلك ما قاله صاعد بن أحمد الأندلسي "لا أعرف كتاباً ألف في علم من العلوم قديمها وحديثها، اشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفنَ غير ثلاثة كتب "أحدهما المجسطي لبطليموس في علم الأفلاك، والثاني كتاب أرسطوطاليس في علم المنطق والثالث كتاب سيبويه البصري النحوي، فإنَ كل واحد من هذه لم يشذ عنه من أصول فنه شيء إلا ما لا خطر له[3]". وفيه قال أبو حيان الأندلسي المتوفى 745هـ "إذ هو المطّلع على علم الأعراب، والمُبدي من معالمه ما درس والمُنطق من لسانه ما خَرس والمُحيي من رفاته ما رُمس والرّاد من نظائره ما طُمس، فجدير بمن تاقت نفسه إلى علم التفسير وترقّت إلى التحقيق فيه والتحرير أن يعتكف على كتاب سيبويه[4]".

تنصّ بعض الروايات أنَ الخليل من المقلّين في الإنتاج العلمي، وفي الحقيقة هو من المؤسّسين الفاتحين لباب الإنتاج، وكلّ إنتاج يستند إلى عمله فهو عالةٌ عليه، ولابدَ أن يعود إليه، وكيف يكون مقلاً بذلك ومِنْ هنا ثردَ دعوة القائلين في أنَ الخليل قليل إنتاجه، ألم يترك الذخيرة العربية الكبرى من خلال معجم العين الذي قدّم فيه أرقاماً إحصائية في المادة المجمّعة ككلمات وجمل وأمثال وشواهد. وبتلك الصورة الرياضية

---

[3]- شوقي ضيف. المدارس النحوية. ط3. القاهرة: دار المعارف. ص 59-60.

[4]- البحر المحيط في التفسير. د ط. بيروت: 1992. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ج1. ص 11.

استطاع حصر ما يمكن أن تكون عليه الكلمة من وجوه بحسب ترتيب حروفها، والنظر إلى كلّ واحدة في ما يلحقها من زوائد وابتدع طريقة المخارج التي أصبحت بعد ذلك مدرسة سار عليها بعض صنّاع المعاجم فكانت نظرته سابقةً عصره، وأبانت اللغة بذلك عن خضوعها للتطوّر العام الذي يطرأ على المجتمع، فهي ظاهرة اجتماعية تخضع لتلك الظواهر*. ألم يترك زاداً لغوياً يعمل على اتقاء الخطأ من خلال قرآن النحو، وفيه نرى آمالي الخليل يجسّدها طالبه النجيب في الكتاب، فهذا بروكلمان يقول: "إنّ الخليل هو المؤسّس الحقيقي لعلم النحو الذي وضعه سيبويه في كتابه بعد أن تلقّاه عنه" كما ترك المنظومة النحوية المنسوبة إليه من قبل خلف الأحمر المتوفّى 175هـ ورأى بعض المحقّقين نسبية الإسناد المبدئي للخليل، فهذا الأستاذ أحمد عفيفي محقّق المنظومة النحوية المنسوبة للخليل، والتي طبعها في الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة سنة 2003، خلُص إلى أنّ المنظومة منسوبة للخليل ولكنّه لم يغلق باب البحث للتحرّي وإعادة النظر في قوله الذي لم يقطع فيه هذه النسبة نهائيا، وهذا رغم المحاولات التي بدأها سنة 1995 عندما عرض المخطوطة أول مرة وهو يحقّق العمل، ولكنّه في كلّ الأحوال

---

* - لقد درس الأستاذ Gérard Troupeau الكتاب في دراسة إحصائية في كتابه:
Lexique-index du Kitab de Sibawayhi. Ed. Klincksieck, 11 rue de Lille. Paris : 1976
وسيجد القارئ توصيفاً لذلك الإحصاء، بالإشارة إلى الترتيب التنازلي والتقسيم إلى مختلف تصنيفات الفعل والاسم والصفات العاملة. وهذا عن طريق العديد من البدائل والصفات من شتى الجداول المختلفة التي تنتمي إلى المفرد أو الجمع بنوعيه، أو اسم التصغير... وكل هذا في إطار الإحصاء العام لمختلف الالفاظ التي وظّفت في الكتاب.

بقيت علامات الاستفهام على هذه النسبة. وبدراسة مستفيضة يستغرب الأستاذ عبد الرحمن الساريسي أمر نسبة هذه المنظومة للخليل لعدّة أسباب، فيرى بأنه لم نقرأ عن الخليل أنه كان لديه فراغ من الوقت لينظم نحواً من ثلاثمائة * بيت في شرح موضوعات النحو، ولم يذكر ذلك ممّن ترجم له من سوى رواية عُرف عنه نظم الشعر ونحله للآخرين... وازداد الشكّ لديّ حينما لم يستطع محقّق هذه المخطوطة أن يقنع أحداً بما بدا أنه مقتنع به من أمر هذه النسبة فالأعلام والمصطلحات النحوية الواردة فيها غير كافية لإثبات ذلك... ثمّ إنه لم يبدُ أنه رعى أصول التحقيق العلمية في نشر كتب التراث في تحقيقه لهذا الكتاب، كذلك فإنّ في هذه المخطوطة ركاكة وصياغات لغوية لا تتناسب ومستوى الخليل في الكتابة ولا تتناسب مع عصره. والخطّ الذي كتبت به هذه المخطوطة لا يتناسب مع عصره أيضاً. ولهذا كلّه يغلب الباحث أنّ هذه المخطوطة قد وضعت أبياتها في عصر تأخّر كثيراً عن عصر الخليل بن أحمد الفراهيدي[5]". وهذا نرى أنّ نسبة المنظومة للخليل مشكوك فيها، ويمكننا أن نقتطف بعض الأبيات ونترك البحث الجاد يفصل بشكل نهائي في أمر النسبة

والأمر بالنون الخفيفة فاعلمنْ ... والنهي أصعب في الكلام وأعزب

لا تعصين الله واطلب عفوه ... لا تشربن خمراً فبئس المشربُ

---

* - وعدد أبياتها 292 بيتاً.

[5] - "حول نسبة منظومة نحوية للخليل بن أحمد الفراهيدي" الندوة الدولية.

فإذا نطقتَ فلا تكن لحّانة ... فيظل يسخر من كلامك معربُ

التحو رفع في الكلام وبعضه ... خفض وبعض في التكلّم ينصب

وإذا جمعت مذكراً ومؤنثاً ... فالفعل للذّكران منهم يغلب

وتقول تلكم ظبية ونعامة ... فيها ثور راتعين وقرهب

فتقول ضاربُ خالدٍ أو ضاربٌ ... زيداً، وزيد خائف يترقّب

إن أنت نوّنت الكلام نصبته ... فتصحّ منه فروعه والمنصب

والتاء إن زادت فخفض نصبها ... ما عن طريق الخفض عنها مهرب

فكما ترون هي أبيات تعليمية نحوية تربوية أخلاقية وعظية ومن خلالها تجلّت خطوات التحو في مسار تحكيم القواعد وتبسيطها، ولا يعلوها الغموض والالتواء فإلى جانب التحو، هناك كتب أخرى منسوبة للخليل ولكنها مفتقدة من مثل: النغم/ الإيقاع/ العروض/ كتاب النقط والشكل/ كتاب الشواهد: كتاب في العوامل/ كتاب الجمل/ كتاب فائت العين/ المعمّى/ جملة آلات العرب/ كتاب في معاني الحروف...

استطاع حصر ما يمكن أن تكون عليه الكلمة من وجوه بحسب ترتيب حروفها، والنظر إلى كلّ واحدة في ما يلحقها من زوائد وابتدع طريقة المخارج التي أصبحت بعد ذلك مدرسة سار عليها بعض صنّاع المعاجم فكانت نظرته سابقةً عصره، وأبانت اللغة بذلك عن خضوعها للتطوّر العام الذي يطرأ على المجتمع، فهي ظاهرة اجتماعية تخضع لتلك الظواهر*. ألم يترك زاداً لغوياً يعمل على اتقاء الخطأ من خلال قرآن النحو، وفيه نرى آمالي الخليل يجسّدها طالبه النجيب في الكتاب، فهذا بروكلمان يقول: "إنّ الخليل هو المؤسّس الحقيقي لعلم النحو الذي وضعه سيبويه في كتابه بعد أن تلقّاه عنه" كما ترك المنظومة النحوية المنسوبة إليه من قبل خلف الأحمر المتوفّى 175هـ ورأى بعض المحقّقين نسبية الإسناد المبدئي للخليل، فهذا الأستاذ أحمد عفيفي محقّق المنظومة النحوية المنسوبة للخليل، والتي طبعها في الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة سنة 2003، خلُص إلى أنّ المنظومة منسوبة للخليل ولكنه لم يغلق باب البحث للتحرّي وإعادة النظر في قوله الذي لم يقطع فيه هذه النسبة نهائيا، وهذا رغم المحاولات التي بدأها سنة 1995 عندما عرض المخطوطة أول مرة وهو يحقّق العمل، ولكنه في كلّ الأحوال

---

* - لقد درس الأستاذ Gérard Troupeau الكتاب في دراسة إحصائية في كتابه:
Lexique-index du Kitab de Sibawayhi, Ed. Klincksieck, 11 rue de Lille. Paris : 1976
وسيجد القارئ توصيفاً لذلك الإحصاء، بالإشارة إلى الترتيب التنازلي والتقسيم إلى مختلف تصنيفات الفعل والاسم والصفات العاملة. وهذا عن طريق العديد من البدائل والصفات من شتى الجداول المختلفة التي تنتمي إلى المفرد أو الجمع بنوعيه، أو اسم التصغير... وكل هذا في إطار الإحصاء العام لمختلف الألفاظ التي وظّفت في الكتاب.

بقيت علامات الاستفهام على هذه النسبة. وبدراسة مستفيضة يستغرب الأستاذ عبد الرحمن الساريسي أمر نسبة هذه المنظومة للخليل لعدّة أسباب، فيرى بأنه لم نقرأ عن الخليل أنه كان لديه فراغ من الوقت لينظم نحواً من ثلاثمائة * بيت في شرح موضوعات النحو، ولم يذكر ذلك ممّن ترجم له من سوى رواية عُرف عنه نظم الشعر ونحله للآخرين... وازداد الشكّ لديّ حينما لم يستطع محقّق هذه المخطوطة أن يقنع أحداً بما بدا أنه مقتنع به من أمر هذه النسبة فالأعلام والمصطلحات النحوية الواردة فيها غير كافية لإثبات ذلك... ثمّ إنه لم يبدُ أنه رعى أصول التحقيق العلمية في نشر كتب التراث في تحقيقه لهذا الكتاب، كذلك فإنّ في هذه المخطوطة ركاكة وصياغات لغوية لا تتناسب ومستوى الخليل في الكتابة ولا تتناسب مع عصره. والخطأ الذي كتبت به هذه المخطوطة لا يتناسب مع عصره أيضاً. ولهذا كلّه يغلب الباحث أنّ هذه المخطوطة قد وضعت أبياتها في عصر تأخّر كثيراً عن عصر الخليل بن أحمد الفراهيدي[5]". وهذا نرى أنّ نسبة المنظومة للخليل مشكوك فيها، ويمكننا أن نقتطف بعض الأبيات ونترك البحث الجاد يفصل بشكل نهائي في أمر النسبة

والأمر بالنون الخفيفة فاعلمنْ ... والنهي أصعب في الكلام وأعزب

لا تعصين الله واطلب عفوه ... لا تشربن خمراً فبئس المشربُ

---

* - وعدد أبياتها 292 بيتاً.

[5] - "حول نسبة منظومة نحوية للخليل بن أحمد الفراهيدي" الندوة الدولية.

فإذا نطقت فلا تكن لحّانة ... فيظل يسخر من كلامك معربُ

التحو رفع في الكلام وبعضه ... خفض وبعض في التكلم ينصب

وإذا جمعت مذكراً ومؤنثاً ... فالفعل للذكران منهم يغلب

وتقول تلكم ظبية ونعامة ... فيها ثور راتعين وقرهب

فتقول ضاربُ خالدٍ أو ضاربٌ ... زيداً، وزيد خائف يترقّب

إن أنت نوّنت الكلام نصبته ... فتصحّ منه فروعه والمنصب

والتاء إن زادت فخفض نصبها ... ما عن طريق الخفض عنها مهرب

فكما ترون هي أبيات تعليمية نحوية تربوية أخلاقية وعظية ومن خلالها تجلّت خطوات التحو في مسار تحكيم القواعد وتبسيطها، ولا يعلوها الغموض والالتواء فإلى جانب التحو، هناك كتب أخرى منسوبة للخليل ولكنّها مفتقدة من مثل: النغم/ الإيقاع/ العروض/ كتاب النقط والشكل/ كتاب الشواهد: كتاب في العوامل/ كتاب الجمل/ كتاب فائت العين/ المعمّى/ جملة آلات العرب/ كتاب في معاني الحروف...

الخليل عبقريّ العرب

ما يعرف عن الخليل في مجال العبقرية أنه فريد في اختصاصته فعقله أكبر من علمه، فهو مبدع اللغة؛ حيث أسهم في مرحلة التكوين المعرفي للغة العربية كما أقام قواعد لمرحلة التأسيس العلمي، وترك بنية الإنتاج والفاعلية لمريديه وللمجتهدين بعده. كما عمد إلى تتبّع الاستقراء العلمي الدقيق في معرفة منهجية الدرس في مراحل علمية مختلفة، وفي امتداد زمني معيّن، وحاول توظيف تلك المنهجية في بناء جدول معرفي. وإنه عالم متميّز، له فكر نيّر، وعقلية نادرة استطاع بذكائه أن يبتكر معجم العين، ولم يسبقه غيره، ويكتشف الدوائر العروضية بما وهب من حسّ نادر في الإيقاع والموسيقى واستطاع أن يقعّد النحو العربي والصرف بما رسم لسيبويه فضمن هذا أفكار الخليل وسار على منهجه، كما وضع رموز الشكل المعروفة لضبط الكتابة العربية بالحركات التي نعرفها اليوم "الشكل الذي في الكتب من عمل الخليل، وهو مأخوذ من صُوَر الحروف، فالضمة واو صغيرة في أعلى الحرف لئلا يلتبس بالواو المكتوبة والكسرة ياء تحت الحرف، والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف[6]". كان الخليل أعجوبة الدهر "فجاءت اكتشافاته على صعيد البحور الشعرية ونظرية النحو العربي الذي

---

[6]. عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القران. القسطنطينية. 1302 مطبعة الجوانب.

ضمّ في البدء الصرف والبلاغة والأسلوب ودراسة تطوّر اللغة وضمّ المنطق، والجانب العقدي في النحو العربي والحديث غير المفتعل عن بعض علل النحو، وانتقل إلى المكنات العلمية على صعيد الرياضيات والموسيقى[7]". إنّ الخليل من أولئك الذين تسنّموا ذروة التميّز في اختصاصهم، وقد حفظ له التاريخ مكانته السامية واعترف بنبوغه الأباعد، وكان له فضل السبق في إبراز خصائص العربية، وهذا ما أظهره سيبويه على أنّه مسقرئ المادة اللغوية من كلام العرب، وهو يتنقّل في أعالي نجد بحثاً عن المادة اللغوية التي يوثق بها ويطمئن إلى دراستها، وبتلك المادة يطرح طرائق العقلنة في خصوصية الصيغ المستدعاة، ولا يقدّم مشروعاً فكرياً جاهزاً، وما نجده في كتب الأوائل: فهو أول من ضبط اللغة/ أول من حصر أشعار العرب/ أول من كتب في العروض والقوافي/ لم يكن أحد أعلم بالنحو من الخليل/ يحفظ نصف اللغة/ إمام أهل اللغة العربية مطلقاً/ وفتق عيون النحو/ رجل لم يُرَ مثله في التاريخ/ لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل ولا أجمع/ الخليل أذكى العرب، وهو مفتاح العلوم ومصرفها/ أعظم نحوي حملته أرض العراق... هي من الأشياء الحقيقة التي أريد بها الحقيقة، في شخص مبدع ألهمه الله خدمة اللغة العربية التي كانت وعاء كلمه، ثمّ

---

[7] - محمد سالم بعد الله "المنظومة المعرفية للفراهيدي - دراسة نقدية -" الندوة الدولية.

ساعده ذكاؤه على الاستنباط والاستقراء والتحليل من خلال مدوّنة أهلها فصحاء البادية الذين كانوا عمدته في الاستنباط والتقعيد.

وهكذا تتمثل عبقرية الخليل في ذكائه الرياضي المخترع، وبذلك أكمل الأسس التي بدأ النّحاة بوضعها منذ أبي الأسود الدؤلي ت 69هـ مروراً بنصر بن عاصم الليثي ت 90هـ، وعبد الله بن أبي إسحق الحضرمي ت 117هـ، ويحيى بن يعمر العدواني ت 129هـ، وابن عمر الثقفي 149هـ وأبي عمرو بن العلاء 154هـ... فهؤلاء حملوا مشعل البحث العلمي في البدايات الأولى وكانت لهم اجتهادات متواضعة، إضافة إلى كبقات المؤسّسين المجهولين الذي لهم إسهام تنامى وظهر على يدّ الخليل وسيبويه. والحاصل أنّ أعمالهم ظهرت في بنية التأسيس الفعلي لدى الخليل، فقد عمّق مبادئ التأسيس وأعطاها صفة العقلنة والتعليل، وفسّر مستغلقهم وقام على ربط الظواهر ببعضها، ونظر إلى اللغة على أنّها صرح محكم البنيان منطقي التركيب، وقدّم مدركات ميّزت اللغة العربية وعلى ضوئها يطمئن الباحث إلى حسّيات لغوية يقبلها المنطق اللغوي ويرضاها العموم... ولا تملك نفسك إلا وأنت تتمثل علماً شامخاً وعبقرياً من عباقرة الدنيا ونادرة من نوادر الزمان، وهذا ما دعى الإمام الشافعي يقول: وقد كنت أحبّ أن أرى الخليل بن أحمد.

وإنّ الخليل يحمل عبقرية واعية، فاستطاع من خلالها توجيهها الوجهة السليمة في الإبداع العربي، وفي تلك الحضارة التي بدأت معالمها تتأسس عبر تركة لغوية بسيطة، فهل تصمد وتصلح لتكون مادة في بناء معرفة الإنسان، وهل ينقل الخلف نقلاً إضافياً إبداعياً على ما أسّسه الأولون، وهل يحصل التواصل الحضاري بين اللغات والحضارات، ويكون العرب من المساهمين في الحضارة البشرية التي يتفاعل فيها الأقوياء دراية وإنتاجاً، وهل يعمل المعاصرون على نقل التنظيم المعرفي من الحالة العفوية اللغوية إلى الحالة المفهومية التي تفرض معطياتها تجلّيها في طبيعة الدرس المعرفي الحديث.

لقد كان الخليل من أذكياء التاريخ وعباقرة عصره فالتفّ حوله المريدون يأخذون عنه العلم الوفير، فعبقريته تجلّت في مآثره على العلم والتواضع والقناعة فهو البسيط الصابر على شظف العيش؛ والناس تكسب من علمه الجاه والمال فهناك من أكل الدنيا بعلمه، مثل الليث بن المضفر "فكان شعث الشعر، شاحب اللغوي، متخرّق الثياب، لا يقدر على فلس، وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال[8]" وهو قاعد في خصّ بسيط هادئ قانع، ولكنه يحمد الله على نعمة ما أوتيتْ لأحد وهي نعمة

---

[8] - أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد ابن هاشم. الأشباه والنظائر من أشعار العرب المتقدمين والجاهلية والمخضرمين. تح: السيد محمد يوسف. القاهرة: 1958. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

العبقرية والعلم والفطنة والذكاء، فاتقى التعمة بشكرها، ولم يترق منصباً، ولا خاف من جبروت الخليفة، وهو الرافض دعوة سليمان بن حبيب بن صفرة والي فارس والأهواز وعمّ أبي العباس السفاح لتدريس أولاده فأغراه بالمال، ولم يستجب، فلوّح لرسول الخليفة بكِسْرة يابسة قائلاً: ما دامت هذه في داري فلست بحاجة للأمير، وقال :

أبلغ سليمان أني عنه في سعة ... وفي غنى غير أني لستُ ذا مالِ

سَخِيّ بنفسي أني لا أرى أحداً ... يموت هَزْلاً ولا يبقى على حالِ

إن كان ظنّ سليمان بنائله ... فالله أفضل مسؤول لسؤال

والفقر في النفس لا في المال تعرفه ... ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

والمال يغشى أناساً لا خلاف لهم ... كالسيل يغشى أصول الدندن البالي

فالرزق عن قدر لا العجزُ يُنْقِصُه ... ولا يزيدك فيه حولُ محتالِ

كل امرئ بسبيل الموت مرتهن ... فاعمل لنفسك إني شاغل بالي

كان رفضه حاداً، لأنّ الأمير أراد أن يأخذه معلماً لابنيه، بدل معلم عامة الناس، وأكرهه، فرفض، وقال:

ما أرتضيه منه لا يأتيني ... وما يأتيني منه لا أرتضيه

وتنصّ بعض الروايات أنّ هذا الرفض أدّى به إلى أن يقطع سليمان بن علي جرايته عليه، فكتب إليه الخليل قائلاً:

إنَ الـذي شـقَ فـمـي ضـامن ... لـــيَ الـرزق حـتى يـتـوفّاني

حـــرمتـــني خـيراً كـــثيراً فما ... زادك في مـــالـك حـرمـــانـي

ولما وصلته هذه الأبيات، اعتذر وأضعف جرايته فسامحه الخليل وأرسل له هذين البيتين :

وزلةٍ يكـثر الشيطان إن ذكرت ... منـــها التـعجّب جـاءت من سليمانا

لا تعجبَن لخير زلَ عـن يـــده ... فالكوكب النحسُ يسقي الأرض أحيانا

وكأتي بالخليل راهب متبتلَ في محراب العلم، وشعاره أنَ العالم لا يسعى لأحد، وإنما يُسعى إليه. إيه يا أيها الخلَ الوفيَ الصافي المودّة، أقف في هذا المقام إجلالاً لشخصك وشخصيتك البسيطة العالمة المتواضعة، فأنت نموذج للتواضع الذي لم تُعمِه الشهرةُ ولم يبطره المجدُ. شخصية عَظُمت في عيون الناس باعتباركم أحدَ الأربعة الذين لم يُدْرَك مثلهم الإسلام في فنونهم: الخليل، وابن المقفّع، وأبو حنيفة، والفرّاري*. وأردّد قول الشاعر علي بن أحمد الشريف بن مالك الذي هام في مدح ممدوحه فقال :

سُعدتُ فبشرى إذ مُنحتُ بحبّكمُ ... وذاك مُـنـاي فـي الـدُنا ومـرام

لقد أضرمتْ نارُ الخليل بمهجتي ... فـهامَ لها دمـعي كقـصر غـمام

---

* - تذكر بعض الروايات بأنَ راهباً التقى الخليل وقال له: إنك أحد الأربعة الذين لا مثيل لهم في فنونهم. فأسألك عن أهل الجنة الذين يأكلون ولا يتغوّطون. علماً انا لم نر أحداً أكلاً أو شارباً لا يتغوّط. فقال الخليل: إن أهل الجنة لا يتغوّطون. مع أنهم يأكلون ويشربون فإننا نعرف أنَ الجنين في بطن أمه يتغذى ولا يتغوّط فبهت الراهب.

وإذ أهيم مراراً فيك يا شيخي لأنك في مقام العبقرية فكلّما أقرأ عنك أجد نفسي في مقامات شتى، فأهيم وأهيم وأتمثلكم فأراكم نابغة عصركم، بل نابغة العرب أجمعين، حيث بلغتم في العلم مكانة لا يعرفها التاريخ لغيركم، فكنتم لغوياً جمّاعاً، أمسيتم في الرَّبع الخالي عفيفاً، فاستهوتكم البيئة لشافهة الأعراب والسماع إليهم، فجبتم بَوادي الحجاز ونجد وتهامة، مُواجهاً العرب في صحرائهم مستمعاً لأحاديثهم في أسواقهم، وأراني مستفيداً مذاكراً مفيداً من علمكم الغزير ومن عفافكم وطهركم، ألم تقولوا ذات يوم: إذا ما حللتُ في مجلس ووجدتُ من هو أعلى منّي علماً فذاك يوم استفادتي، وإذا وجدت من هو مثلي علماً، فذاك يوم مذاكرتي، وإذا وجدت من هو أدني منّي علماً فذاك يوم إفادتي. إيهٍ يا أيّها الخلّ المتواضع، أروني كيف جبلتم على هذه العبقرية التي لا تعلق إلا بالكبار فأنتم كبير، وهمم الكبار تزيح الجبال حيث جمعتم ألفاظ أمة في معجم واحد يحفظ للعربية تاريخها، ويجعلها حرماً مقدساً لا يجوز المساس ببنيتها، ولها قوانينها التي تنمو وتتوالد على أساسها، وهي نابعة من داخلها، وليست مملاة من خارجها.

الخليل وسيبويه

في الحقيقة إن (الكتاب) لسيبويه هو الشاهد الأول على العلاقة العلمية بن الرجلين، وعلى جهد الخليل في التأسيس الحقيقي لعمل النحو العربي، فما إن يذكر سيبويه حتى يقفز اسم الخليل إلى الذاكرة، وما ذلك إلا لتأثر سيبويه بالخليل حتى إنّ دعامة الحكاية في كتاب سيبويه هو الخليل، وكلّما قال سيبويه: سألته، أو قال، من غير أن يذكر القائل، فهو الخليل بن أحمد[9]". لقد أكثر سيبويه من الإشارة والإشادة بشيَم الخليل، وصدَره في مواقع كتابه وهذا بعدما صبّ الخليل شآبيب أفضاله عطفاً عليه، فكان يحبّه ويهشّ للقائه، فهو الفارسي المدلّل الذي لا تملّ زياراته، إنه بولس للمسيح، وأبو هريرة للرسول ﷺ سيبويه المحبّ للعربية وطالبُ نحوها، بعدما أُخطئ في مسألة الاستثناء وحمّاد بن سلمة يملي عليه حديث رسول الله ﷺ "ليس من أصحابي أحد إلا لو شئت لأخذت عنه ليس أبا الدرداء، فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء، ظنّه اسم ليس، فصاح به حمّاد: لحنتَ يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبتَ إنما هو استثناء، فقال: لا جرمَ والله لأطلبنّ علماً لا تلحنني فيه أبداً. ومضى إثر ذلك ولزم الخليل لزوم المريد، ومن هنا كانت البداية الأساس لنحو أساس، حتى تجمّعت لديه

---

[9] - عوض بن أحمد القوزي "جهود الخليل في صناعة المصطلحات النحوية" الندوة الدولية.

أدوات التحويين واللغويين والجماع والفقهاء والمتأدبين، وبذا كان الخليل موجهه ومنير طريقه، وما استكان شغفه ولا هدأ، يطلب المزيد، ولما رآه الخليل قد فطر الفطنة، قرّب مجلسه وأدنى مقامه وجعله واسطةَ عقد الأفاضل، ورأسَ الرؤساء الأوائل، وحافظَ السرّ وناظمَ الدّر في سطور كتابه الملقّب بقرآن النحو والبحر المحيط. لقد كان الطالب سيبويه وفياً لعلمه، وأخرج أقواله في مصنفه العظيم (الكتاب) بعدما كانت أمالي متناثرة فكان ضابطاً صادقاً في نقوله، وهذا بشهادة يونس بن حبيب الذي قيل له: "إنّ سيبويه ألّف كتاباً من ألف ورقة في علم الخليل، فقال: ومتى سمع سيبويه من الخليل هذا كلّه؟ جيئوني بكتابه. فما نظر في كتابه ورأى ما حكى قال: يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل في ما حكاه، كما صدق في ما حكى عني[10]". لقد جاء بناء كتابه قائماً على التعليل والحوار الذي جرى بينه وبين الخليل بالسؤال عن العلل، وما كانت هذه العلل تذهب بعيداً وراء التفسير المباشر، بل إنها تبقى في ضوء الشكل التركيبي للعبارة، ومع هذا فإنّ الكتاب عمل غير مسبوق في منهجه ودرسه. وإن وردت إشارات عن كتابي: الإكمال والجامع لعيسى بن عمر.

---

[10] - ع/ ياقوت الحموي. معجم الادباء. بيروت: مطبعة دار المأمون. ج16. ص 116.

لقد جمع الكتاب ما تفرّق ممّن تقدّمه من العلماء من علوم العربية، حتى أصبح سجلاً لآراء الخليل في النحو فأكثر فيه من قوله: سألت الخليل/ وسألته/ قال، من غير ذكر القائل فيعني به **الخليل** ويقول علي النجدي ناصف في كتابه (سيبويه إمام النحاة) قال: "إنّ جملة ما روي عنه في الكتاب 522 مرة، وهو قدر لم يروَ مثله ولا قريباً منه عن أحد من أساتذته[11]" وهذا ما يجسّد خصوصية الأستاذية التي تفرّد بها علم الخليل في علم سيبويه. ويرى حتا حداد أنه ورد اسم **الخليل** صراحة في الكتاب، أو عناه دون تصريح باسمه 548 مرة[12] ". وهناك من يقول بأنه "تردّد اسم **الخليل** في اثنين وثلاثين وثلاث مئة موضع عدا ما كان يرويه عنه بقوله: سألته أو زعم أو قال أو يقول[13]". وقد أكّد هذا أحمد خالد توفيق[14] كلّ ما قال سيبويه: سألته، أو قال من غير أن يذكر قائله فهو عن **الخليل**[15]. وأحياناً يشير إليه بقوله: حدّثني من لا أتهم/ حدّثني من أثق بعربيته ويرى عبد

---

[11] - علي النجدي ناصف. سيبويه إمام النحاة. ص 93.

[12] - "الخليل بن أحمد والكتاب: مجلة اللسان العربي. الرباط: 1998. مكتب تنسيق التعريب العدد السادس والأربعون. ص 202.

[13] - مهدي المخزومي: الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه. ط2. بيروت: 1986 دار الرائد العربي. ص 220.

[14] - شيء من حتى. القاهرة: المؤسسة العربية للطبع والنشر والتوزيع (سلسلة روايات مصرية للجيب) ص 53.

[15] - نشأة محمد رضا. علم العروض الوظيفي. ط1. دمشق: 2000. مكتبة دار الفرفور للطباعة والنشر والتوزيع. ص 23.

السلام محمد هارون أنه روى عنه 200 مرة "بلغ نقله عن الخليل 200 رواية فكان ثاني العلماء الذين أكثر النقل عنهم*، وهو كان معبراً لسيبويه في الرواية عن أبي عمرو بن العلاء أو عن ابن أبي إسحاق، وربّما استعمله سيبويه معبراً في الرواية عنهما جميعاً في رواية واحدة كما في الكتاب[16]"، كما يستعمل في أبيات الشعر غير المنسوبة قوله (أنشدنا) ويقصد به الخليل. وأحياناً يستعمل كلمة زعم وزعم الخليل. فكلمة زعم تعني في نظر القائل رأياً مقتنعاً به أما الذي يصف قول القائل بالزعم فهو غير مقتنع به، وأما سيبويه يستعملها عندما يريد التملّص من رأي أستاذه احتراماً لرأيه "بيد أنّ سيبويه حاول أن يتملّص من منهج أستاذه الذي يرى –عملياً- القياس على كلّ ما قالته العرب ولهذا حاول الأستاذ (الخليل) أن يجد لكلّ قول تعليلاً، بيد أنّ سيبويه حاول أن يتملّص من رؤية أستاذه بعبارته التي كرّرها المرات، وهي (زعم

---

* - يعيد الأستاذ عبد السلام هذا القول بأنّ سيبويه نقل/ أسند معظم نقوله إلى الشيخ أيوب السختياني. ويأتي الخليل في الرتبة الثانية. وفي هذه الرواية شكّ يقين. كيف لا ونعرف أنّ السختياني مات سنة 131 هـ وسيبويه في الغالب لم يكن جنيناً. أو هو فتى. وهذا انطلاقاً من أقوال الباحثين الذين لم يذكروا تاريخ ولادة سيبويه، واختلفوا في تاريخ وفاته. فبعض الروايات تقول إنه توفى سنة 180 هـ. وبعض الروايات سنة 185. وبعض الروايات تقول سنة 194 هـ. ولكن كلّ الروايات **تجمع** على أنّ سيبويه لم يعمر كثيراً. فمات في عزّ شبابه. فإذا سلّمنا بأنه نقل عن السختياني الذي توفى سنة 131 هـ يعني أن عمره آنذاك كان في حدود الخمس والعشرين او أكثر، ويضاف إليها خمسون سنة بعد وفاة السختياني ويعني بذلك أنه مات وعمره لا يقلّ عن 77 سنة. وهذا يناقض أقوالهم بأنه مات صغيراً. ويبقى أنّ المسألة بحاجة إلى **تحرٍ دقيق**.

[16] - الكتاب. تحقيق وشرح. عبد السلام محمد هارون. ط1. بيروت: خبعة دار الجليل د ت. ج1 ص 11 (المقدمة).

الخليل)[17]". وربّما يكون الخلاف هنا منهجياً لا غير، كما يمكن أن يكون في الأرضية المعرفية لكليهما، بأنّ الخليل متأثر بكثير من الثقافات أضف إلى ذلك سليقته العربية، فكانت نظرته إلى الشاذ نظرة لها عقلية منطقية، وسيبويه لم يكن سليقياً وقد أثرت فيه ثقافته الفارسية، فلم ينظر إلى المسألة إلا على أساس أنّ الشاذ خروج عن الإجماع، فلا يجوز القياس عليه. ومرة أخرى نقول: إنّ منهج سيبويه متصل بمنهج علماء فارس، وربّما يكون منهج الخليل ينحاز إلى الكوفيين، رغم أنه لم ير الكوفة "إنّ سيبويه فارسي، وقد سبقه علماء نحو فرس كانوا يأخذون بالقياس على الأعم الأغلب، ويطرحون ما خالف الأعمّ الأغلب ويسمونه بالشاذ ومن الأمثلة الطريفة على ذلك أنّ أحد علماء النحو، واسمه عبد الله كان يخطّيء الفرزدق، والفرزدق عربي قحّ، وشاعر عظيم، ويحتجّ بشعره في اللغة والنحو فقد كان يعيش في بادية البصرة، وتوفّى قبل انقضاء دولة بني أمية (ولد في سنة 20هـ وتوفّى سنة 114هـ) قال الفرزدق من قصيدة مدح:

وعـضّ زمـان يا ابن مروان لم يـدع مـن الـمال إلا مسـحتاً أو مجـلـفُ

فخطّأه عبد الله هذا، فقال: قلت: مجلفُ، والصواب: مجلفاً عطفاً على مسحتا فغضب الفرزدق وهجاه ببيت شعر فقال:

---

17 - عودة الله منيع القيسي "الخليل بن أحمد الفراهيدي لغوياً ونحوياً" الندوة الدولية.

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

والفرزدق الشاعر الكبير -العربي القح- الذي عاش في بادية البصرة لا يُخطيء، ولكن هذا النحوي الفارسي (المولى) يريد أن تسلم له قواعده العامة التي تقوم على الأعمّ الأغلب، وليت اللغة كذلك[18]". ولا نعدم ثقافة سيبويه الواسعة الذي يحترم أيّما احترام رأي أستاذه، ولا يذكر اسمه عقب اسم الخليل تأدباً، فيذكر وقال غيره.

إيهٍ خليل، لا أقبض على الكلمات التي تعطيك حقّك، فأنت الذكي الفطن وخُلقتَ من ذهب، وسبقتَ عصرَك فأتى لي أن أجد ما يوفي الوصف في حقّك وقد قيل فيك: الخليل رجل عقله أكثر من علمه/ لم يأتِ في العرب بعد الصحابة من هو أذكى من الخليل. وهكذا تظهر الروايات علاقة وطيدة بين الخليل وسيبويه، ويعني هذا أنّ زيارات سيبويه للخليل متكرّرة، والخليل يكنّ له الودّ الخاص أكثر من كلّ ضيوفه (مرحباً بزائر لا يملّ).

[18] - عودة الله منيع القيسي "الخليل بن أحمد الفراهيدي لغوياً ونحوياً" الندوة الدولية.

الخليل وعلم المعاجم

إنّ الخليل من القامات التي وقع الإجماع عليها بأنها تتميّز بالفرادة والنباهة لما أوتيَ من رجاحة عقل وعمق مكّناه من أن يخوض في مسائل اللغة وغيرها من ضروب المعرفة، فلقد اهتمَ بعلم الأصوات، فكان منطلقُه الأصوات التسعة والعشرين في اللسان العربي؛ وهذا ما ظهر في معجم العين الذي رتب مخارج حروفه بادئاً بحروف الحلق، وجعل حروف العلّة آخر شيء: ع ح هـ (حلقية) خ غ (لهوية) ق ك (شجرية) ج ش ص (أسلية) ص س ر (نطعية) ط د ت (لثوية) ظ ث ذ (ذلقية) ف ب م (شفوية) واي (هوائية) وجمعت هذه الحروف في بيت شعري متداول:

صِفْ خَلْقَ خودٍ كمثل الشمسِ إذ بزغتْ يحظى الضجيعُ بها نجلاءَ معطارُ

ولقد جاء سيبويه بترتيب آخر، فنقل حروفاً من المكان الذي وضعها الخليل إلى أماكن أخرى، وجعل عدة المخارج ستة عشر، ورتبها على غير ما رتبها عليه الخليل، وإن تابع الخليل في عدد الحروف العربية، وأنها تسعة وعشرون حرفاً، فإنه قال "وتكون خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هنّ فروع وأصلها من التسعة والعشرين وهي كثيرة يؤخذ بها ويستحسن في قراءة القرآن والأشعار... وتكون اثنتين وأربعين حرفاً بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر... وهذه الحروف التي تممتها اثنتين وأربعين جيّدها ورديئها أصلها

التسعة والعشرين[19]". إنّ الخليل بعمله هذا استهدف دراسةَ اللغة، واستخراجَ قوانينها العامة، وجمعَ مفرداتها في معجم يسهل على الدارسين تناوله والوقوفِ على جزئياته ومسائله، والخلوصِ إلى منهج قويم، فكانت الغايةُ عنده تحديدَ المادة التي ترتبط بشكل مباشر بفكرة الاشتقاق؛ فالمادة أو الجذر تمثل الأصل، والصيغ تمثل الفروع المشتقّة، وهذا يعني أنّ تحديد الجذر مهمّ جداً للترتيب المعجمي "وهذا المنهج ابتكره الخليل ويقوم على حشد جميع الكلمات التي تتكوّن من حروف واحدة في مكان واحد، مع وضعها تحت أبعد الحروف مخرجاً، بالإضافة إلى مراعاة الكمّ في البنية اللفظية للكلمة، وجعل لكلّ حرف كتاباً. وابتدأ بأبعد الحروف مخرجاً وهو الحلق ومنتهياً بحروف الشفتين، وسلك هذا المنهج الأزهري في تهذيب اللغة (ت379هـ) وفي مختصر العين، والقالي (356هـ) في البارع وغيرهم[20]".

ولقد طغت معالم معجم العين في كثير من المعاجم العربية، وتمثلها بعض المعجميين في معاجمهم* وبرغم من أنّ منهجية الترتيب معقّدة إلا أنه أسهم

---

[19] - ابن جني. المحتسب في تبيان وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها. تح: علي النجدي ناصف وآخرين. القاهرة: 1966.

[20] - عبد التواب مرسي حسن الأكرت. ابن منظور ومظاهر التضخم في معجمه. القاهرة: 1998. دار البشرى للطباعة والنشر ص 74.

* - سار على نهجه الصوتي كل من أبي علي القالي ت 356هـ في معجمه (البارع) والأزهري ت 370هـ في معجمه (تهذيب اللغة) والصاحب بن عبّاد ت 385هـ في معجمه (المحيط) وابن سيده الأندلسي ت 485هـ في معجمه (المحكم والمحيط الأعظم). ومنهم من لخصه كمختصر العين للزبيدي. ومنهم من استفاد منه بطريقة مباشرة وغير مباشر كمدرسة القافية. ومدرسة الألفبائية. ومدرسة التدوير والمدارس المعاصرة.

في تعميق التفكير في طبيعة اللغة وكيفية علمها، وشجّع على إرساء البحث الصوتي والمعجمي على أركان مكينة، وبالتالي أثر في صناعة المعاجم لأحقاب ممتدّة.

قام معجم الخليل (العين) على منهجية صوتية تمثلت في :

- النظر إلى أصل اللفظة.
- ترتيب الكلمات بحسب مخارج الحروف.
- وضع الكلمة ومقلوباتها في مادة واحدة.
- ترتيب الكلمات المندرجة في مادة لغوية واحدة.
- الترتيب الداخلي على أساس الأبنية.

وبعقلية رياضية أرسى قواعد مدرسة معجمية، سُميت بالمدرسة الصوتية، أو مدرسة التقاليب، وذلك بحصر أصول كلام العرب وما يأتلف من حروفها وما لا يأتلف ثمّ وضع التقاليب على الأصول دون الزيادة، فبني على أساس علمي في استقراء المستعمل من الصيغ على الأوزان التالية: الثنائي: 2، الثلاثي: 6 الرباعي: 24، الخماسي: 120، وقد انطلق من البنية الافتراضية لحروف اللغة داخل هذه الصيغ الصرفية وهي تقوم على أساس الاحتمال الرياضي، ولكنّه أولى أهمية بالغة للقوة الاستعمالية باعتبارها دليلاً على الوجود التداولي لبعض وجوه الصيغ المذكورة:

في الثنائي : $28 \times 27 = 756$

في الثلاثي : 28 × 27 × 26 = 19656

في الرباعي : 28 × 27 × 26 × 25 = 491400

في الخماسي : 28 × 27 × 26 × 25 × 24 = 1179360

المجموع = 12305412

وهكذا هداه تفكيره الفذ إلى حصر الكلمات في الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، وإلى تصوّر قضايا الزوائد عن طريق نظام بديع: حروف الزيادة/ كلمات مستعملة/ كلمات مهملة، ويؤدّي به الإحصاء إلى أنّ عدد أبنية كلام العرب يبلغ 12 مليوناً، و305 ألف، و412 كلمة؛ فمنها المستعمل، ومنها المهمل. وتناولها أبو بكر الزبيدي في مختصر العين فاستخرج منها ما هو مستعمل فعلياً فوجده لا يتعدّى 5620 والباقي مهمل[21]". وهذه الجذور هي التي تقوم عليها الطاقة التوليدية العربية بوصفها الجذور الصالحة لاشتقاق الأبنية الفعلية والاسمية. وبهذا العمل الذي استهدف منه حصر اللغة وجمعها على أساس علم وكان يقصد من وراء ذلك حراسة القرآن من أن يقتحمه خطأ في النطق أو الفهم أو في اللفظة الدخيلة، وكذلك بدأت كلّ الدراسات العربية لخدمة الدين الإسلامي والذي يهمنا أنّ المعجم عمل على ضبط ألفاظ اللغة، وتعرّض إلى

---

[21]- عباس الصوري. في بيداغوجية اللغة العربية (البحث في الاصول) ط1. الرباط: 1998 مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء. ص 61.

خصائص بعض اللهجات. كما تعرّف على الحياة الحضارية للأمة العربية في العصور الأولى وهناك من يصنّف هذا العمل ضمن كتب اللغة والأدب وهناك من يصنفه في الموسوعات المعجمية. وبذا نرى الخليل يتحدّث عن الاستخدام اللغوي للفظ، ويذكر منشأ ورودها، ويسجل انطباعات العرب ومسلكياتهم تجاهها "ولذلك لم يكن كتاب العين معجم البحث عن معنى اللفظة فحسب، بل كان معجم تصوير استخدام اللفظة، أو قل إن شئت هو معجم اللفظة ومعجم قصة اللفظة[22]".

لقد أدار الخليل معجمه إدارة مهندس حاذق ماهر في خطّته وترتيبه وتقليبه وبيان المستعمل منه والمهمل وشواهده، فمهّد للصناعة المعجمية كما تراها الدراسات الحديثة، وهذا بالكشف عن مختلف السياقات التي تنالها اللفظة حسب المقام والحال، فالخليل يشرح دلالة اللفظة لغوياً، ويجاوز ذلك إلى تتبّع دلالات استخدامها ويستفيض في الحديث عن معناها، وأحياناً يذكر قصة ورودها في اللغة، ويذكر من عرفها ومن جهلها من فصحاء العرب وتعالق اللفظة بغيرها كما تجلّى أثره في معاجم لاحقة فهذا ابن فارس في معجمه (المجمل) يتخذ معجم العين عماداً لعمله. فروى عن الخليل مائتين وأربعين قولاً. كما نجد الخليل حاضراً بقوة في معجم لسان العرب لابن منظور "وقد بلغت نقولات ابن منظور عن الخليل بن أحمد ما

---

[22] - رائد فريد خافش + منير تيسير الشطناوي "تصوير الحياة الاجتماعية عند العرب في كتاب العين" الندوة الدولية.

يقرب من مائتين وخمسة وستين موضعاً، تتوزع على حقول معرفية مختلفة، وهي: اللغة والنحو والصرف والعروض والأصوات[23]". ولا يغيب معجم العين في عمل العوتبي "وله أثر بيّن بشكل لا يمكن تجاهله وقد ظهر في كتاب (الإبانة في اللغة العربية) لأبي المنذر بن سلمة بن مسلم العوتبي الصُحاري العماني[24]" وكذلك ظهر أثره في مؤلّف الطوسي (التبيان) فيستعمل في أغلب نصوصه عبارة: قال صاحب العين/ قال الخليل/ والقول في العين/ روى الخليل...

إنّ عمله هذا يؤدّي بك للقول: إنّ فضل الخليل ظهر كذلك على مستوى الدرس اللساني كبير، ويبدو لي أنه امتلك رؤية لسانية يتكامل فيها النظر في مستويات العربية "ألا توجد علاقة بين مقول الخليل في المستعمل والمهمل ومقول De Saussure في اللغة Langue والكلام Parole ذلك أنّ Langue ترمز إلى جميع صور الكلمات المخزونة في عقول جميع الأفراد، أي الجزء الاجتماعي المؤلّف للغة، وأما Parole فهو الجزء الأدائي المستخدم عند المتكلمين[25]". ويمكن أن نربط ذلك بفكرة تشومسكي بأنّ النظام للغوي المفترض عند الخليل يقابله Compétence عند تشومسكي.

---

[23]- عاطف فضل خليل "الخليل بن أحمد الفراهيدي في لسان العرب" الندوة الدولية.

[24]- صلاح محمد الجرار "أثر كتاب العين للخليل بن أحمد في كتاب الإبانة للعوتبي" الندوة الدولية.

[25]- عبد الكريم مجاهد "الأبعاد اللسانية لنظرية التقليب الخليلية" الندوة الدولية.

والمستعمل يقابله Performance أي الأداء اللغوي، أو الممارسة العملية بحسب ما تتيحه المعرفة المختزنة من قواعد أي استعمال ما استوعبه واختزنه من عناصر المعرفة اللغوية من أصوات ومفردات وقواعد في مواقف الحياة المتنوّعة.

الخليل وأصول النحو

كان الخليل بن أحمد يتمتع بميزات نقدية في التعامل مع معطيات السماع والقياس والمشاهدة والاستقراء، والتعامل مع الظواهر بوصفها مركّبات حيّة يمكن استنباط القاعدة منها، وبذا يكون قد حوّل ممكنات الدرس اللغوي إلى إمكانيات توحيد مفاهيم وتهيئة مصطلحات مناسبة لوصف الظواهر اللغوية وترسيمها وفقاً لمنهج رآه. فنقل الدرس اللغوي من الوصفية إلى التحليل، ومن دراسة الناتج إلى دراسة المنتوج، ومن كون اللغة قوالب إلى أساليب حيّة متغيّرة حسب المقام والسياق. كما ألاحظ في فكر الخليل حوسبة لغوية حيّة للغة العربية التي تعرف الحِراك المتنوّع عن طريق التقليبات وما يعترض الكلمة من تحوّل ألفاظها، أو تغيّر الحركات الواقعة عليها، ولقد كان الخليل يعلّل لكلّ استعمالات اللغة، فليس في اللغة ما يمكن اطّراحه، إذ ليس في اللغة الفصحى استعمال اعتباطي لا تعليل. كان الخليل من الواضعين للقواعد بشكل استنباطي من القرآن الكريم، ومن كلام العرب فكانت قواعده عملية تطبيقية. وله فضل النهوض بهذا العلم الذي وطّد أركانه أبو الأسود الدؤلي في أول تحليل عملي للنصّ القرآني في وضع علامات مميّزة لتمييز موقع الرفع عن النصب وعن الجرّ، وهذا عندما هزّه اللحن في قراءة القرآن الكريم، وذات الأمر أرقّ الخليل فسعى

إلى تطويقه وإنقاذ اللغة من خطر اللحن، فبدأ يضع أصول اللغة، وبها أصلح ألسنَ الناس وحمى اللغة العربية وكفل لها التداول، وبقيت خالدة لا يدنو مشيب من حماها وكان الخليل رأس الطبقة الثالثة، حيث درس اللغة العربية على أساس من فقه اللغة، بادئاً بالحروف، متذوّقاً فيها ومستخرجاً حقائقها وخصائصها، ثمّ الكلمات ودلالاتها، ثمّ التراكيب وهذا ما أتاح له وضع القواعد الأولى التي سمّاها الأصول. وحدّد من خلالها الفروع، وترك المجال لطلابه لتوسيعها، ويؤرّخ للاشتقاق ومختلف التقليبات التي كان يجريها على الكلمة. لقد كان الخليل يعتمد طريقة لغوية يغلب عليها الحسّ اللغوي، وتبنى على دعائم قوية من التذوّق للأساليب العربية "رأى الخليل أنّ أصول الكلمات العربية تسعة وعشرون حرفاً، وهي حروف الهجاء وأنّ الكلمة العربية لا تخرج أبداً عن كونها مؤلّفة من بعض هذه الحروف، وبدأ عمله بتذوّق الحروف، فهداه تذوّقه إلى ترتيب الحروف ترتيباً جديداً، كان أول الحروف فيه هو العين"[26]. وإنها لطرافة عالم عبقري، أدّته إلى تذوّق الموسيقى فتوصّل إلى استخراج أوزانها وأضربها، وقسّمها إلى تفعيلات وأسباب وأوتاد وأدّى به هذا إلى التمييز بين كلمة عربية وكلمة غير عربية لمجرّد خروجها عن الوزن، فكان أستاذاً عملياً تجريبياً يستقرئ

---

[26] - رئاسة الجمهورية العربية السورية. الموسوعة العربية. سورية: 2003. هيأة الموسوعة العربية. المجلد الثامن. ص 899.

القواعد من المسموع. ويعدّ الخليل أول مؤسّس للمصطلحات النحوية التي ظهرت في كتاب سيبويه من مثل: الرفع/ الضم/ الفتح/ الخفض/ الكسر/ الجر/ الجزم/ الوقف/ السكون/ التنوين/ الإمالة/ الرَّوْم النكرة/ المعرفة/ الجمع/ المذكّر/ المؤنث/ المبهم... كما عني بدراسة النحو دراسة علمية منظّمة، على اعتبار أنّ النحو أبو العلوم وواسطةُ عقدها ورياضة عقلية ضرورية لا غنى عنها لفهم النّصوص؛ ووقع تركيزه على النحو باعتباره مجموعة من القواعد العامة الأصلية التي لا يستغنى عنها أيّ علم، وهناك الفروع التي تخرج منها، فكان زعيم المدرسة القياسية المقتنة، وقال الزبيدي "وهو الذي بسط النحو ومدّ أطنابَه وسببَ عللِه وفتق معانيَه، وأوضح الحِجاج فيه، حتى بلغ أقصى حدوده وانتهى إلى أبعد غاياته، ثمّ لم يرضَ أن يؤلّف فيه حرفاً أو يرسم رسماً وترفّعاً بقدره، إذ كان قد تقدّم إلى القول عليه والتأليف فيه فكره أن يكون لمن تقدّمه تالياً. وعلى مظهر من سبقه محتذياً، واكتفى في ذلك بما أوحى إلى سيبويه من علمه ولقنه من دقائق نظره عنه وتقلّده وألف فيه الكتاب الذي أعجز من تقدّم قبله، كما امتنع على من تأخّر بعده[27]". فإن كان الخليل كبير هذا الفنّ وخبيرُه، فإنّه مقدّم هذا النوع، فلا يزهد طالب عن علمه، وهو واضع رموز الفتح والضم والكسر

---

[27]- ع/ الشيخ محمد الطنطاوي. نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة. ط3. القاهرة: 2005 دار المعارف. ص 78.

والشدّ والمدّ والوصل والإشمام والرّوم "إنّ الجهد الذي كان قد بدأه كلّ من نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر... أدّى إلى أن يكون في العربية رسم لكلّ من الفتحة والكسرة والضمّة كما أنّ الخليل هو الذي ابتكر رسم الهمزة[28]". ومع ما قدّمه من جهد في الكتاب نجد غياب المنهج الذي سلكه في إنجاز الكتاب ومن ذلك نلمس بعض الإبهام والغموض، لأنّه نهج منهج الفطرة والطبع؛ يدرس أساليب الكلام في الأمثلة والنصوص؛ ليكشف عن الرأي فيها صحة وخطأ، أو حسناً وقبحاً، أو كثرة وقلّة، لا يكاد يلتزم بتعريف المصطلحات ولا ترديدها بلفظة واحدة، أو يشترط شروطاً.

لقد كان الخليل يعني بالأصول، ويوضّح الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح معنى الأصل قائلاً "هو ما يوجد ويستمر في جميع فروعه وهو ما لا يحتاج إلى علامة، وهو بذلك يستغني عن فروعه، إذ يبنى عليه ولا يبنى على غيره فكلّ عنصر من هذه الحيثية هو أصل لغيره أو فرع لشيء آخر، وهذا لا ينطبق فقط على ما نسميه بالاشتقاق، بل يتناول أيضاً تفريع الألفاظ التي هي في أجزاء الجملة وتراكيب الجمل كيفما كانت[29]". كما ينسب المسائل التي لا تنطبق عليها الأصول إلى شذوذ فكانت الدراسة اللغوية عنده وعند تلاميذه تغلب عليها صفة اللغة حيث طغت الدراسات القرآنية، واستطاعت المحافظة على الروح التي

---

[28] - إبراهيم السامرائي. رحلة في المعجم التاريخي. ط1. القاهرة: 1994. عالم الكتب. ص 246.

[29] - عبد الرحمن الحاج صالح "التعريف بالمدرسة الخليلية الحديثة" مقال لم ينشر.

أوجدت لها فكان عمله رائعاً، فهو تأسيس متين ومجهود اتسم بملاحظات عينية واقعية استعمالية، وكانت لآرائه صدى في نفوس طلابه، وفي تأسيس مدرسة نحوية كبيرة أثرت لاحقاً في المدارس الأخرى التي نشأت معارضة. كما كان تناوله للقياس من بعض النظرات الافتراضية، حيث يفترض مسائل جديدة ويتتبع وجوه الفرضيات واحدة واحدة، محاولاً استخراج جميع الصور المحتملة في المسألة الواحدة، وأحياناً يفترض آراءَ جسورةً في أنّ للكلمات تأثيراً على بعضها فعمّق النظر في باب العامل، وأعمل فيه عقله فيما يمكن أن يقبله العقل، بادئاً بأثر الحركات إلى أثر الحروف وأثر الكلمات ودواعي الأثر، فانفتح أمامه التعالق والتعلّق بين الألفاظ، وهذا من التعالق الأولي بين الأصوات والكلمات والبناء والميزان الصرفي وما يعرض لها من تغيير في أصول بنائها. وفي كلّ هذا يرى أنّ أثر كلّ كلمة في الأخرى هي من طبيعة اللغة التي تتفاعل فيها الكلمات ومن ذلك وجدت علاقة الاسم بمسماه، وعلاقة الفعل بفاعله وعلاقة الفعل والاسم والحرف... وبحث مريدوه في هذه الظاهرة، فأوجدوا لبعضها التعليل ولبعضها قالوا: **هكذا نطقت العرب.**

وأما **العلّة** عنده فهي علة واعية عميقة وظيفية تربوية، وبابها الاجتهاد، ونراه يقول بالرأي، ولم يعتمد على أثر، واكتفى بغلبة الظنّ ولم يرجع إلى ثابت اليقين ولذلك طلب ممّن تبدو له علّة خير من علّته

أن يأتي بها "إنّ العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علّله، وإن لم ينقل ذلك عنها. واعتللت أنا بما عندي أنه علّة لما عللته منه. فإن أكن أصبت العلّة فهو الذي التمست وإن تكن هناك علّة له؛ فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء عجيبة النظم والأقسام وقد صحّت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق اليقين، أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائمة. فكلّما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنما فعل هذا هكذا لعلّة كذا وكذا، ولسبب كذا سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك. فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فَعَلَ ذلك للعلّة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار وجائز أن يكون فِعْلُه لغير تلك العلّة. إلا أنّ ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علّة لذلك، فإن سنح لغيري علّةٌ لما عللته من النحو هي أليَق مما ذكرته بالمعلول فليأتِ بها[30]". وهكذا نرى أنه يفترض العلّة الواحدة، ولكنه لم يغلق بابا الاجتهاد للبحث في العلاقات التي تحدثها الكلمات. ويوصي والجَ النحو أنه لا يدرك كنهه ما لم يدرك العلّة، ويربط ذلك بالعوامل اللغوية والفلسفية والتوقيفية: سماعاً وقياساً، لفظاً ومعنىً، أصلاً وزيادة وشبه زيادة، قوّة وضعفاً[31]". وبهذا

---

30 - أبو القاسم الزجاجي. الإيضاح في علل النحو. تح: مازن المبارك. بيروت: 1974 دار النفائس ص 65-66.

31 - جورج متري عبد المسيح + هاني جورج تابري. الخليل معجم مصطلحات النحو العربي. ط1. بيروت: 1990. مطبعة لبنان. ص 14.

النصّ أرى الخليل يبحث عن الدليل والبرهان العقلي الذي يرتبط بالفكر وبالواقع وصولاً إلى الانتظام في وضع القواعد ففي كلّ باب يعلل بالحجّة التي يطمئن إليها من الأوضاع اللغوية والحالات العامة التي نطق بها العرب على سجيّتهم، وكان عليه أن يستعمل التعليل العقلي الذي يوصله إلى مجرى القوانين اللغوية المستمرة التي تتفرّع عنها كثير من الأحكام التي تتخذ شكل قوانين مطّردة، ففتح بذلك باب التفريع والتخريج في مسالك العلّة، ونقل البحث في العلة إلى التجريد.

كما امتدّ نبوغه إلى موضوعات ثقافية عدّة، فبرز فيها، وكان فيها مبدعاً أضف إلى هذا أنّ له إلماماً باللغة اليونانية والسريانية، وهذا ما توضّحه الشواهد التي أتى بها في معجمه العين[32]، وقد قال بروكلمان المستشرق الألماني: ويبدو حقاً أنه ابتكر شكل الحروف وعلامات القراءة استناداً إلى نماذج سريانية[33]".أضف إلى هذا أنه كان صديق ابن المقّفع الذي ترجم منطق أرسطو إلى العربية، فيمكن أنه أثر فيه. ومهما يكن فإنه استفاد منها وأكسبته عمقاً في التفكير، وقدرة على الإحاطة بالموضوعات العامة والخاصة، ولكنه لم يتأثر بها فيما أتى به للغة العربية: حيث كانت مصادرُه بوادي نجد والحجاز وتهامة فانصرف

---

[32] - تحقيق: مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي. بغداد: 1984. دار البشير للنشر. ج1. 232/ ج3. 401/ ج6. 114/ ج8. 112.

[33] - كارل بروكلمان. تاريخ الأدب العربي. ترجمة: النجار. بيروت: دت. الجزء الاول ص 132.

لمدارسة النحو امتثالاً لقول شيخه أيوب السختياني: تعلّموا النحو فإنه جمال للوضيع، وتركُه هجنةٌ للشريف، فدرس أثر الاستعمال الفعلي للغة وتعرّف على مواطن التخفيف والثقل والإشمام والإدغام والكلمات السهلة من الصعبة ومواطن التبديل، وكيف تتآلف الكلمات أو تتنافر ورأى الأسماء في العربية لا تقلّ عن ثلاثة أصول، ولا تزيد على خمسة أصول "ليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف، فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل واسم فاعلم أنها زائدة على البناء وليست من أصل الكلمة مثل: قرعبلانة، إنما أصل بنائها قرعبل، ومثل: عنكبوت إنما أصل بنائها عنكب[34]".

[34] - معجم العين. الجزء المطبوع، ص 3.

الخليل والنظرية النحوية المعرفيّة

أتجرأ للحديث عن النظرية الخليلية القديمة، وهذا بالعودة إلى (الكتاب) في بعض مراميه، وسأكون مختصراً بالإشارة إلى عناصرها الكبرى من خلال (الكتاب) لأقول: إنّ كتاب سيبويه في الحقيقة ينقسم إلى قسمين: تناول في القسم الأول مباحث النحو، في أبواب عديدة ولم ينسَ المفردات النحوية في كلّ مجالاتها العامة والخاصة، ولا يمكننا أن نحيط بها لكثرتها. وفي القسم الثاني عالج مباحث الصرف، متحدّثاً عن الأصوات اللغوية بكلّ تفاصيلها، وهذا عند تطرّقه لباب الإدغام ومختلف الظواهر الصوتية، فقد ميّز بدقّة متناهية بين الأصوات ووصفها ثمّ بيّن مخارجها وشدّتها وضعفها أو قوّتها وهمسها... وأكثر الحديث عن مفهوم الحركة والسكون واستفاض في الإمالة والإشمام والرّوْم وغير ذلك. ومع كلّ هذا فإنّي لمست الكتاب يستكمل عمل أبي الأسود الدؤلي الذي زرع فسيله، فنما على كرّ الزمان، بإضافة اللاحق إلى السابق، فازداد فيه التدوين والتصنيف شيئاً فشيئاً. وجاء الخليل بفريقه يحطّ القواعد في الكتاب، وفق نظرية نحوية تجسّد القوانين العامة التي تنطلق من المبادئ التالية:

أولاً: المشاهدة للحوادث والاعتماد المطلق على المسموع الثابت:

فيلاحظ التحرّج والتحرّز من الاصطناع عدا نقْل ما سمع وشاهد، وما

يقوله أكثر العرب فوقع الاهتمام في هذه النقطة على تجسيد قول العرب: الخروج من حدّ القلّة إلى حدّ الكثرة، مع عدم هدر ما قلّ استعماله إذا لم يخالفِ القياس.

ثانياً: الرجوع الدائم إلى واقع كلام العرب مع الاعتماد على الثابت منه: وهي سمة اعتمدها النحاة الأوائل المشافهون لفصحاء العرب والوفاء للواقع اللغوي بنقله دون تصرّف، بمراعاة معيار اللغة[35].

ثالثاً: مفهوم الفصاحة: إنّ مفهوم الفصاحة عند الخليل تبدأ من النّسق اللغوي المحدّد لأصول الكلمات، فتأليف أصول الكلمات المتباعدة المخرج فصيحة والمتقاربة المخرج حسنة، وذات نفس المخرج قبيحة، فهذا إجراء أولي يعتمده الخليل في المادة اللغوية التي ينطلق فيها من اللفظة المفردة (النواة) وهي عماد الجملة، واللفظة الفصيحة هي الحسنة الخالية من الوحشي والمستنكر والغريب والنادر، والفصاحة درجات، وتتجلّى فائدتها في الممارسة والاستعمال. ففصاحة اللفظة المفردة يحكمها **قانون الرواج والاستعمال** الذي يأخذ به الجمهور. ومن هنا تحصل غرابة اللفظة في قلّة الاستعمال. ومن هنا فإني رأيت تأكيد بعض أركان **النظرية الخليلية** من خلال ما تمتاز به من شمول، وإن

35- عبد الرحمان الحاج صالح "تعال نحي علم الخليل، أو الجوانب العلمية المعاصرة لتراث الخليل وسيبويه" محاضرة القيت في الجلسة السادسة عشرة من مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في الدورة السادسة والستين بتاريخ: 11 محرم 1421، الموافق: 16 أبريل 2000، نشرت في العدد الثاني والتسعين من مجلة المجمع لعام 2001.

كانت صلاحيتها أثناء الوضع تصلح للعربية ذوقاً وعرفاً واستعمالاً حيث وصف الأصوات من حيث جهرها ورخوها وشدّتها وهمسها وطباقها... ولم تفندها الآلات المعاصرة كما خاض كثيراً من الميادين فأجاد حتى شكّلت نظريته "مؤسّسة متكاملة من المعارف أحكمَ أمرها من خلال اكتمال نظريته المعرفية فرضاً واستعمالاً فالعروض لديه بدا نظرة إيقاعية يخرج منها ويأتي إليها في كلّ جهد شدّ به المفكرون والدارسون حتى اليوم، والمعجم العربي لديه هيكل لبناء لغوي حوى الشارد والوارد، الواقعي والمتخيّل[36]". وهكذا تتجلّى نظريته في أسسها الكبرى كما عرضها الكتاب، ويمكن أن نستخلص منها الآتي:

1- **عنايته بدراسة الناحية الصوتية والحروف:** وفي هذا المجال يعتمد على الناحية الذوقية عنده، والجهد الشخصي، فكان منهجه مدرسياً ينصبّ على التقليبات الصوتية، ومنه وضع فنّ الموسيقى العربية وعلم العروض والقافية.

2- **اهتمامه بالأصول:** لم يهتم الخليل بالمسائل الجزئية عنايته بالأصول حيث كان يستعين بالتجربة والتذوّق للوصول إلى هذه الأحكام، فمزج بين الاستقراء والاستنباط، وكان همّه تقعيد القواعد واستخراج الأصول وتقرير الأحكام المختلفة. ولقد كان الغاية في

---

[36]- الخليل. المنظومة النحوية المنسوبة إلى: الخليل بن أحمد. دراسة وتحقيق: أحمد عفيفي. القاهرة: 2003، الدار المصرية اللبنانية. ص 7.

استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه والعودة إلى الأصل الذي يحدّده في ما يبنى عليه ولم يبنَ على غيره، باعتباره العنصر الذي لا زيادة فيه أو النواة، يستقل بنفسه. والفرع هو الأصل بالزيادة، أي مع شيء من التحويل. وفي هذه المرحلة تحدّث عن **السماع والقياس والعامل والعلّة والباب ...**

3- **اهتمامُه الخارق بالنحو، وجَعْلُه في علوّ الطبقة**: وربّما يتدخّل العامل الديني الذي كان السبب في هذا المجال، مما جعله **يبدع ويخلق القوانين التي تنتظم اللغة**. ففي الكتاب نجد انتظام شتاتُ النحو، والتآم عقدُه واتخاذ دورَه الفنّي. فلقد شمّر الجميع عن ساعد الجدّ ونزلوا الميدان، وكان ديدنهم العمل على جعل لغة القرآن لغة عالمية، فبذلت فيها جهود جبّارة في استكمال الإحاطة بجميع قواعده حتى استوى النحو على قدميه، ومثلت صورته بارزة للجميع. ومجمل القول: إنّه لم ينصرم هذا الطور حتى قطع النحو شوطاً كبيراً شارف فيه النهاية فكان الكتاب المرآة التي تتكشّف بها صورة التأليف الأولي الذي يعود فيه الفضل إلى الخليل، الذي كان يقضي في البادية زمناً، ثمّ ينزل البصرة فيعطي المادة المجمّعة إلى سيبويه، الذي يعمل على ترتيبها وتصنيفها وتبويبها. والحقّ كلّ الحق أقول: لقد كان الخليل أسرع من أن يدركه الزمن. حيث كان يملي الكثير على طلابه لا يملّ ولا يتعب

وكان الطلاب يتعبون ويشفق عليهم، فكان هو وجيله من السعة والدقّة، بحيث نعدّهم نحويين متخصّصين، وكانوا موسوعيين مهّدوا لظهور النحو في صورته الكاملة.

4- **وضعه للمصطلحات النحوية:** نلاحظ في هذا الوضع تلك الأصالة في صورته البسيطة الآتية من الوصف الفطري الطبيعي، ومن هنا نجد في بعض المصطلحات الغموض في أسلوب الكتاب، وهذا طبيعي باعتبار المصطلحات التي يحملها جاءت وفق الألفاظ التي كانت تتداول في عصره، فتكلّم بها، أضف إلى ذلك أنّ الكتاب أُنجز في المرحلة التأسيسية ولم يتطوّر فيها علم المصطلح النحوي، ولذا نجد أمثال:

- هذا باب ما يعمل فيه الفعل فينتصب وهو حال وقع فيه العمل، وليس بمفعول (الحال).
- هذا باب ما استكرهه النحويون وهو قبيح فوضعوا الكلام فيه على غير ما وضعت العرب.
- هذا باب ما يُختار فيه النصب وليس قبله منصوب بُنيَ على الفعل (الاستفهام)...

5- **تركيزه على أبواب النحو:** ما يلاحظ أنّ مفردات الكتاب تصدّرت بـ (هذا باب...) والباب عنده غير محدّد في صورة المفهوم، أو المعاني المشتركة أو النمط النحوي... بل هو المجموعة التي تنضوي تحتها

سلسلة المفاهيم النحوية/ الصرفية/ الدلالية، وتشملها قاعدة مشتركة مطّردة، وأحياناً تحصل فيها بعض الاستثناءات في جزء من أجزاء المجموعة، ولاحظ مثلاً هذه الأبواب:

- هذا باب ما الكَلِم من العربية.
- هذا باب ما يجري ممّا يكون ظرفاً هذا المجرى.
- هذا باب الصفة المشبهة بالفاعل فيما عملت فيه.
- هذا باب ما يُختار فيه الرفع.
- هذا باب ما ينتصب على التعظيم والمدح.
- هذا باب إنّ وأنّ.
- هذا باب الندبة.
- هذا باب ما لا يجوز أن يُندب.
- هذا باب ما تردّه علامة الإضمار إلى أصله.
- هذا باب نفي الفعل.
- هذا باب ما ينصرف في المذكّر البتة ممّا ليس في آخره حرف التأنيث.
- هذا باب أسماء القبائل والأحياء وما يضاف إلى الأب والأم.
- هذا باب ما أُعلّ من أسماء الأفعال المعتلّة على اعتلالها.
- هذا باب ما كان شاذاً مما خففوا على ألسنتهم وليس بمطّرد...

إنّ موضوعات الكتاب ومفرداته قائمة على مسألة (الباب) وبعد النظر في الأمر، تبيّن أنّ الباب يعني به الأمر الرياضي البحت، كونه نموذجاً منطقياً يستعمل لرصد مجموعة من العمليات التي تملك فيما بينها علائق معيّنة، وهو إبداع عقلي مصطنع يفترض ملاءمته لمقاربة اللغة عن طريق التجريد للغة المعطاة في الواقع، ووضع القواعد مقاربة لتلك اللغة، باستعمال التجريد البحت الذي هو آلية أساس تمكّن اللغة من أن يكون لها معنى عقلاني والخروج بالقواعد التي تنتظم تلك المجموعات التي تسمح بتوليد مجموعة لا متناهية تملك عدداً لا متناهياً من المتواليات النحوية التي تتحدّد في اللغات الطبيعية المشكّلة للعلائق الواردة بين الأصول وبين العناصر المشتقة منها وهذا في الحقيقة مفهوم توليدي بحت. ويمكن التفصيل في هذا الأمر مرة أخرى لنقول: يتحدّد الباب عند سيبويه بأنه يطلق على المجموعات المرتبة من الحروف الأصلية للكلمة، أو ما يطلق على أبنيتها وعلى أوزانها وعلى تراكيب الألفاظ، أي هو مجموعة العناصر التي تنتمي إلى فئة أو صنف وتجمعها بنية واحدة، في معنى مجموع الوحدات غير المجزّأة التي لها نفس البنية مثال: نظام/ جذر/ صيغة صرفية/ مخطط تحقيق Ensemble des items ayant une même structure. أضف إلى هذا أنّ الباب يحوي على النظائر، وهي العناصر المقابلة أو المساوية لجميع عناصر الباب المتفق في البناء، ويجمعه قياس واحد. ويقول الأستاذ عبد

الرحمن الحاج صالح: الاسم يبحث فيه التحوي أولاً عن أقلّ ما يمكن أن ينطق به من اللفظ، ويكون في الوقت نفسه كلاماً مفيداً مثل (كتاب) في إجابة من قال: ما هذا؟ فهذا أصل يمكن أن تفرّع عليه فروع بعملية تسمى الزيادة (وهو تحويل في اللسانيات الحديثة) وتكون كلّ هذه الفروع مكافئة للأصل من حيث إنها قادرة على أن يقوم بعضها مقام بعض ومقام الأصل وهي (الكتاب) (بالكتاب) و (بالكتاب المفيد) وغير ذلك. فتوليد هذه العبارات هو في الوقت نفسه تحديد لها ومجموع العمليات المولّدة المحدّدة تكوّن زمرة، لأنّ فيها صفة التجميع، وفيها إمكانية ردّ الفرع إلى أصله أو عدم التوليد (الصفر)[37]. وأما الفعل فهو لفظة دالة تدخل عليه زوائد وضمائر، ويمكن أن تتصوّر حداً إجرائياً للفعل كنواة تتغيّر فيها العناصر بالتعاقب المطلق. وهي وقفة كبيرة باعتبار ما يلحق آخرها، وما يطرأ عليها من تغيّر دلالي حسب الزمان وما يلحق بها من ضمائم تعمل على تحديد الزمن المطلق. ومن الباب يمكن الحديث عن وجوه **الانفصال والابتداء** ويسميه النحاة الكلم المتمكّنة، وهي الألفاظ التي تنفصل بنفسها وتستقلّ بمعناها، مثل الأفعال التامة التصرّف، فيتحدّد بها أقلّ ما ينطق به من الكلام المفيد وهو الأصل الأكثر تمكّناً من الفعل أو الاسم، يقبل عدداً كبيراً من

37- عبد الرحمن الحاج صالح "تعال نحي علم الخليل. أو الجوانب العلمية المعاصرة لتراث الخليل وسيبويه" مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 2001. العدد الثاني والتسعون. ص 177.

الزيادات يميناً ويساراً. والكلم غير المتمكّنة وهي ما لا يستقلّ بنفسه ودلالته تكمن في غيره مثل الحروف والأفعال الناقصة. وهذه القطع من الكلام المفيد لا يمكن أن تنحلّ إلى أكثر من هذا بعملية الوقف، كما لا يمكن الوقف على جزء منها أصلاً، وتتفرّع عنها قطع أخرى من مثل: الطبشور/ بالطبشور/ كتبت بالطبشور/ الطبشور الأبيض مكسور... وهذه الفروع تقوم مقام ما فوقها وما تحتها، ويمكن استبدال بعضها ببعض في الكلام ويمكن أن يضاف إليها يميناً أو يساراً لأجناس الألفاظ المكنة دون أن تفقد صفتها الجوهرية.

6- **مفهوم المثال:** وهو المفهوم المنطقي الرياضي الذي ينطبق على مستويات اللغة في أدناها كمستوى اللفظة وفي أعلاها كمستوى التركيب، ويستغلّ في ترتيب العناصر اللغوية على أساس تفريعي بالانطلاق من الأصل مثلاً ينطلق في مستوى اللفظة من الاسم المفرد إلى العبارات المتفرّعة عنه بالزيادة من اليمين إلى اليسار والمكافئة من حيث البنية من مثل: أل التعريف/ حروف الجرّ/ الصفة...

7- **أكثر الحروف التالية لكلمتي (هذا باب ما...) لفظة (ما) بمعنى الذي:** لقد تواترت هذه اللفظة في مفردات الأجزاء الأربعة حتى وصلت إلى 234 مرة وتشكّل ظاهرة تحتاج إلى دراسة مستقلّة، أو ربّما يعطي لنا الصورة الصحيحة لما ذكرناه في عدم استقرار المصطلحات،

حيث كان يستقيها من الوصف للكلام المستعمل لا غير، وهذا ما يؤكّد لنا الصورة الحقيقة للغة بأنها **وضع واستعمال** فله أقوال كثيرة في تعبيرات وصيغ أثر فيها الاستعمال؛ حيث كان يلجأ إلى التأويل في إرجاع الكلمة إلى أصلها.

8- **وضعه الحجر الأساس لمدرسة نحوية عربية مقرّها البصرة:**

إنّ النحو الذي وصلنا عرف مراحل النمو والتواصل والصراع، وظهور المدارس وطبقات النحاة، وتظهر الدراسات المعاصرة أنه عرف أربعة أطوار هي: "طور الوضع والتكوين (بصري) طور النشوء والنحو (بصري كوفي) طور النضج والكمال (بصر كوفي) طور الترجيح في التصنيف (بغدادي وأندلسي ومصري وشامي)[38]". وفي كلّ هذه المراحل يعود الفضل الكبير إلى المؤسّسين الأولين أمثال الدؤلي والخليل وسيبويه، وفي هذا لا يغيب عنا الجهود العلمية التي أسدتها طبقات* النحاة في العصور الأولى؛ من العصر الثاني إلى العصر الرابع، ويمكن أن نضيف إليها القرن الخامس الهجري الذي ظهر فيه كثير من الأفذاذ من مثل عبد القاهر الجرجاني، وغيره من النحاة المبدعين.

---

[38] - الشيخ محمد الطنطاوي. نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة. ط3. القاهرة: 2005. دار المعارف. ص 36.

* - قسّم الباحثون الأوائل إلى طبقات حسب الأعصر الزمانية التي ولدوا فيها. وحسب إبداعهم. فمن ذلك هناك من يرى أنّ هناك أربع طبقات مبدعة فقط. وهناك من يرى بأن النحو لم تستقر أركانه إلا على يد الطبقة العاشرة أين اكتملت أصوله. وهذه الطبقات ظهرت في عصور الاحتجاج. ولا يدخل فيها النحاة المتأخرون الذين قزّموا النحو العربي. وجعلوه رموزاً تقرأ. ومحفوظات تتلى.

9- **فتحه مجال الاختلاف من أجل التقعيد:** وهذا بتأسيس مناظرات ومشادات لغوية، والغلبة فيها سجال وكان هدفها الوصول إلى الحقائق اللغوية لا غير. فلا أظنّ أنّ علماً ما يمكن أن يسير سيراً حثيثاً إذا لم تكن روح المنافسة بين علمائه متقدة متوهجّة، فكلّ ينافس الآخر ليثبت أنه أتى بما لم يستطع أحد أن يأتي به وهي منافسة شريفة نابعة من الحرص والصدق والثبت، وأتت بثمار طيّبة، فلقد تصادم النحاة وافترقوا، ولم تكن نتائج تلك المناظرات إلا إكباراً لمدرسة الخليل رغم التحيّز البارز في بعض الأحيان لغير الخليليين. ونعرف أنه ما نعمت اللغة العربية واغتنت إلا من هذا السجل العلمي التنافسي.

لقد ترك لنا الخليل وسيبويه تراثاً لغوياً شاملاً، فأرادا بعملهما تفسير الظواهر اللغوية من أجل خدمة النصّ القرآني، ومن أجل خدمة المنطلق الفلسفي اللغوي وعدّ ذلك سجلاً نحوياً عظيماً، وهذا ضمن نظرية فذّة في وضع الدراسات اللغوية، واصطنعا تجربة مفيدة لتقعيد النحو والوصول إلى أحكام عامة، لأن عقليتهما تعتنيان بالنظر الكلّي العام. ومع كل هذا فإنّ ما خلّفاه يحتاج إلى دراسة من جديد، وفق الدراسة العلمية للغات البشرية من خلال الألسنة الخاصة بكلّ قوم وأقصد بهذا ما أعطاه علم اللسان الحديث من أسلوب علمي يعتمد على المقاييس التالية "ملاحظة الظواهر اللغوية -التجريب والاستقراء

المستمر- بناء نظريات لسانية كلية من خلال وضع نماذج قابلة للتطوير- ضبط النظريات اللسانية الكلية، ثمّ ضبط الظواهر اللغوية التي تعمل عليها- استعمال النماذج والعلائق الرياضية الحديثة- التحليل الرياضي الحديث للغة- الموضوعية المطلقة[39]".

[39] - مازن الوعر "صلة التراث اللغوي العربي باللسانيات" مجلة التراث العربي. دمشق: 1992 اتحاد الكتاب العرب. العدد 48. ص 89.

الخليل وعلم التعمية

صدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق كتاب عنوانه: علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب، بتحقيق محمد مراياتي ومحمد حسّان الطيّان ويحيى مير علم، وقدّم للكتاب الأستاذ رئيس المجمع شاكر الفحام.

إنّ التعمية تأخذ أنواعاً عديدة من مثل: الأحجية/ المعاياة/ العويص/ المرموس/ الكناية/ التاويل/ التعريض/ الإشارة/ التوجيه... وللعرب مؤلفات في هذا المجال من مثل: كنز الاختصاص ودرّة الغوّاص في معرفة أسرار علم الخواص/ كنز الأسما في كشف المعمّى/ شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام... يفيد هذا العلم في قراءة المخطوطات القديمة، ومخطوطات اللغات الأجنبية وفي التراسل السرّي في الحرب والسِلْم.

لقد أشار أبو بكر الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين بأنّ الخليل وضع كتاباً في **علم التعمية** "ويروى أنّ ملك اليونانية كتب إلى الخليل كتباً باليونانية فخلا بالكتاب شهراً حتى فهمه، فقيل له كيف ذلك؟ فقال: إنه لابدّ من أن يُفتح الكتاب ببسم الله أو ما أشبهه فبنيت أول حروفه على ذلك، فاقتاس لي، فكان هذا الأصل الذي عمل له الخليل كتاب المعمّى[40]". وعلى ذكر الزبيدي لعمل الخليل ذكر

---

[40] - أبو بكر الزبيدي. طبقات النحويين واللغويين. ص 13.

ابن نباتة كذلك أنّ الخليل قد كتب في هذا الاختصاص، ولكن لم يصلنا مكتوبه، والجدير بالذكر أنّ العرب لهم إسهاما في هذا العلم، وقد تحدّث عن ذلك الكندي، كما ذكر ابن عدلان في رسالته (المؤلف للملك الأشرف في حلّ التراجم) وكذلك ابن الدُريهم في رسالته (مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز) والذي نسجله في هذا المقام أنّ علم التعمية له علاقة بعلوم العربية والعروض والشعر والرياضيات، والخليل مبدع هذه العلوم، وكما أنّ الخليل يفهم عدة لغات، فيقول عنه يونس بن حبيب ت 182هـ كان يستدلّ بالعربية على سائر اللغات ذكاءً منه وفطنة "ويستخلص من أقوال العلماء القدامى في الخليل بن أحمد أمران مهمان يعدان من الأسس التي يقوم عليها علم التعمية واستخراج المعمّى، وهي: النحو واللغة والعروض. والأمر الثاني: الصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها مستنبط المعمّى وأهمّها الذكاء والفطنة والعلم ودقّة النظر وغيرها. وقد أجمع القدماء على وصف الخليل بالذكاء والفطنة والعلم[41]".

ويبدو من هنا أنّ الخليل لم يبق في إطار مغلق، فعن طريق توظيف إمكانياته الطبيعية الخاصة بالذكاء، يعمل على معرفة الخصوصيات المشتركة بين اللغات على اعتبار أنّ كلّ لغة لا تخلو من منطق ومن منهج تسير عليها، فلا اعتباطية في اللغة.

---

41 - جاسر خليل أبو صفية "الخليل بن أحمد وعلم التعمية" الندوة الدولية.

الخليل والقراءات القرآنية

كما برع في علوم اللغة، برع في علم القراءات ومكّنه ذكاؤه أن يتخذ دليلاً في الكشف عن المعاني، فهو يختار القراءتين من غير مفاضلة إذا اتحد المعنى وإن اختلف المبنى، ويعزّز ذلك بنصوص من الشعر. وكان يحرص على التمييز بين عناصر الكلام والاهتمام بالدلالة والسياق وبالأجزاء الصرفية التي تعمل على كشف المعنى، وعن تعدّد قيمة استعمالها، ولا تفوته فرصة إعطاء المعنى النحوي قيمة عالية للوصول إلى إقرار الصيغة. ويمكن أن نقول: إنّ الخليل صبّ جلّ اهتمامه في تفسير القرآن وغريبه بالجانب اللغوي، ويليه الصرفي ثمّ النحوي ثمّ البلاغي، ويبدو أنه لم يغفل الجوانب الأخرى كما تميّز منهجه باليسر والوضوح فلا تجد الإطالة والحشو.

للخليل إسهامات معتبرة في مجال القراءات، فكان سهمه فيها قائماً على "منهج عرض أوجه القراءة ثمّ دراستها في ضوء العلاقة بين صورة القراءة ودلالتها المعجمية أو النحوية أو الصرفية أو السياقية أو الخاصة لتحقيق المناسبة بين علم القراءات وعلم المعجم، ولكي لا يخرج كتابه العين عن هدفه ومادته[42]".

---

[42] - فليح العاني "دراسة تطبيقية في جدلية المبنى والمعنى" الندوة الدولية.

الخليل والاحتجاج بالحديث النبوي الشريف

كثرت شواهد الحديث الشريف في معجم العين حتى بلغت إحدى وسبعين وخمسمائة، باعتماد منهج صارم يقوم على:

- ذكر المرويات.
- ذكر المرفوعات.
- ذكر الموقوفات.
- ذكر المقاطيع.

ويتجاوز هذا الأمر بالاحتجاج بالأدعية والحديث الضمني وبالرواية الشاذة وبالحديث الضعيف "ومن الأمور المهمّة التي تميّز بها الفراهيدي هي صنعته الحديثية عند استدلاله بالحديث، فهو لم يستشهد بالحديث فحسب، بل اختار مسلك المحدثين في الاستدلال وصيغ الأداء، ممّا يدلّ على أنه متتبع لمناهجهم وعلى علم ودراية بعلوم الحديث وكيفية التعامل مع الرواية الحديثية[43]". وهكذا يورد هذا الباحث عدة أحاديث نبوية وجدت في معجم العين، وقد سلك الفراهيدي في بيانها منهج المحدثين، ويخلص قائلاً:

1- سعة علم الفراهيدي وطول باعه في شتى العلوم والمعارف.

2- أهمية كتاب العين وأنه مصدر رئيس في فنون العلم والمعرفة.

---

43 - حسين علي بطي "الصنعة الحديثية في كتاب العين للخليل بن أحمد" الندوة الدولية.

3- غزارة المادة الحديثية في كتاب العين، حيث بلغت النصوص الحديثية والآثار أكثر من خمسمائة حديث وأثر.

4- صنعته الحديثية المميّزة في التعامل مع الرواية الحديثية.

5- دقّته في عرض الحديث وطرق أدائه.

6- براعته في بيان معاني الأحاديث.

7- يعتبر كتاب العين أهمّ مصدر في معرفة غريب الحديث.

8- تنوّع أسلوبه في عرضه للأحاديث.

9- عنايته الفائقة بنصوص الأحاديث.

10- تمرّسه في الاستدلال والاستنباط.

كما نعلم أنّ سيبويه لم يحتجّ بالحديث، رغم أنّ هناك من الباحثين من يرى أنه احتجّ بستة أحاديث[44]، ثمّ إنّ استشهاده بهذه الأحاديث القليلة جاء ضمنياً وليس صريحاً، ولم يشر في حديث منها إلى أنه من كلام رسول الله، ولم يذكر اسم النبي محمد إلا إذا ورد في بيت شعر. يقول جعفر عبابنة في كتابه (مكانة الخليل بن أحمد في النّحوالعربي) نقلاً عن شوقي ضيف في المدارس النّحوية: إنّ الخليل لم يستشهد بالحديث النبوي في تأصيله لقواعد النّحو. صحيح إنّ الاحتجاج لم يحصل في الكتاب، وهذا موقف يعود لسيبويه وأما الخليل في كتب أخرى فقد احتجّ بالأحاديث، فكيف لا يحتجّ بها وهو عالم بالحديث، وقد جالس السختياني مدداً، وألهمه منهجية التعامل مع

44- سمير محمد عبيد نقد "الاستشهاد بالحديث على اللغة في كتاب العين" الندوة الدولية.

الحديث، وهو الذي قال عنه النضر بن شميل: ما رأيت أعلم بالسنة بعد ابن عون من الخليل بن أحمد، وكيف بالعالم بالسنة أن يغفل الاحتجاج بالحديث الشريف "وإنّ العالم بالسنة لا يمكن أن يغفل الاحتجاج بالحديث الشريف أو أن يكون له تحفّظ عليه إلا إذا كان له من الأسباب غير ما أورده السيوطي نقلاً عن ابن الضائع وأبي حيّان من أسباب واهية، كرواية الحديث بالمعنى، أو وجود الرواة الأعاجم[45]". ولكن من الجانب الآخر نعرف أنّ من العلماء والباحثين من أنكروا الاحتجاج بالحديث لأنه رُوِيَ بالمعنى، ورواته أجانب لا يتحكمون في سليقية اللغة العربية، فهم معياريون، ولا شكّ أنّ أثر اللغة الأم قد تبرز في بعض المواقع، ويكون ذلك مدعاة لأمور أخرى "ويلاحظ أنّ الذين رفضوا الاحتجاج بالحديث مطلقاً هم من الذين لا علم لهم بالحديث فهم يرفضون ما لا علم لهم به، ومن ثمّ فإنّ رفضهم لا قيمة له، وأنّ الذين أقرّوا الاستشهاد به هم من أهل العلم به، وليت النحاة ساروا على درب الخليل لأنه المؤصل الأول للمسألة، وليتهم لم يتابعوا سيبويه، غير أنّ هؤلاء النحاة الذين صرحوا بترك الاستشهاد بالحديث وتكلّفوا الحجج لموقفهم يعدّ رأيهم أشدّ تطرفاً من موقف سيبويه الذي لم يرفض الاستشهاد بالحديث صراحة ولم يسق حججاً في ردّه ولم يخلُ منه كتابه إخلاءً تاماً، وكل ما في الأمر أنه أقلّ الاستشهاد به جيّداً، وكان له سببه في ذلك، وإن كان لا يوافق عليه[46]".

---

45 - خلود العموش "صورة الخليل بن أحمد نحوياً كما رسمها جعفر عبابنة" الندوة الدولية.

46 - سمير محمد عبيد نقد "الاستشهاد بالحديث على اللغة في كتاب العين" الندوة الدولية.

الخليل وعلم العروض

إنّ الخليل مبدع العروض، وهو الذي أنزله من السماء إلى الأرض بعدما كان معلّقاً، فقد وضع نظريته العروضية في قالب رياضي (الدوائر العروضية) وأساس بناء كلّ دائرة من هذه الدوائر هو التقليب الذي جاء بثلاث مستويات: تقليب التفاعيل المكوّن للبحور تقليب مكوّنات كلّ تفعيلة من أوتاد وأسباب، تقليب الحروف بحسب نطقها كما تكمن عبقريته في هذا المجال بتحويله الصوت إلى رمز، فدراساته قائمة على الأصوات المنطوقة لا على الحروف المكتوبة. وذكر أنه كان له علم بالإيقاع وألّف كتاباً سمّاه (النغم) وقد قال نشوان الحميري "وكان الخليل ذكياً فطناً لطيفاً عالماً، وهو أول من استخرج علم العروض وابتدعه[47]" وبذكائه الرياضي الفطن استطاع في مجال العروض أن يتفطّن إلى الإيقاع الشعري، وأنه يُبنى على مقاطع موسيقية، وهذه المقاطع بتضامها تكوّن أجزاء تسمى التفعيلات العروضية، وهذا من خلال استقرائه ما وصل إليه الشعر العربي، فوجده لا يخرج عن "ستة عشر وزناً تجمعها دوائر ثلاث بسيطة: تتركّب من تفعيلات متشابهة خماسية أو سباعية وثنتان مركبتان تفعيلات كل منها في خماسية وسباعية في آن واحد[48]". لقد كانت للخليل إسهامات أساس في المصطلح العروضي، وهذا بعدما كان على دراية تامة باللغة،

---

[47] - الحور العين. تح: كمال مصطفى. ط2. بيروت: 1985.

[48] - أحمد بن عبد الله السالم "الخليل بن أحمد عروضياً" الندوة الدولية.

ومحيطاً بأسرارها وبطرائق التعبير فيها "والخليل لم يتصدّ لوضع المصطلح إلا بعد أن هضم مادته العلمي هضماً جيّداً، واتضحت في ذهنه حقائقها ناصعة جلية، ولم يبق له بعد ذلك سوى أن ينقلها من عالم الفكر المجرّد إلى عالم اللغة المتداول، لتولد وتأخذ مكانها في منظومة الاتصال الكلامية. وقد وجد في الثروة اللغوية التي تكتنزها ذاكرته القوية منبعاً لا ينضب للتعبير عن مفاهيم علومه، ووضعها بأيدي طلبة العلم جاهزة إضافة إلى ذكائه الحاد وحافظته العجيبة وقدرته الفذّة على تصوير العلاقات بين الأشياء، وإيجاد الصلة بينها، وبذلك اجتمعت له الشروط الضرورية التي يتطلّبها وضع المصطلح[49]".

وهكذا -مرة أخرى- نشير إلى أنّ الخليل محدث علم العروض الذي بقي على ما هو عليه دون أن تزاد على عروضه أيّة زيادة تذكر، أو يمسّ الجوهر "فلا تزال الوحدات القياسية للأوزان هي التفعيلات التي اخترعها الخليل، ولا تزال المقاطع الصوتية التي تتألّف منها التفعيلات من الأسباب والأوتاد. كما أنّ عدد الأبحر الخليلية لا تزال ثابتة عند البحور الخمسة عشر التي وصفها الخليل عدا بحر المتدارك الذي لم يذكره الخليل[50]"يبقى أنّ أمر عروض الخليل تحتذى في واقعنا الحالي عند مبدعينا، رغم ما ناله الشعر الحرّ من مساحات في الإبداع الأدبي، ولكنّه لا يخلو من سمة الإيقاع.

---

[49] محمد زرمان "مساهمة الخليل بن أحمد الفراهيدي في وضع المصطلح" الندوة الدولية.

[50] - عبد الكريم مخلف الهيتي "المصطلح العروضي ودلالته المعجمية عند الخليل" الندوة الدولية.

الخليل ونظم الشعر/ قول النثر الحكميّ

نعلم أنّ الخليل لم يكن شاعراً، لكنه نظّم قليلاً منه وكان مُقلاً في ذلك، ولهذا برز اختصاصه واهتمامه بعلوم اللغة، وهناك من الباحثين من جمع شعره القليل وتتبّع الكثير من المظان القديمة للحصول على مادة شعرية من وضع الخليل فنجد الباحثيْن: حاتم الضامن وضياء الحيدري يجمعان شعره الموزع هنا وهناك ويصدرانه في ثلاث حلقات في مجلة البلاغ العراقية الصادرة بالكاظمية وهذا سنة 1973، فأصدرا الجزء الأول منه في العدد الرابع (ص68-77) والجزء الثاني صدر في العدد الخامس (ص73-79) والجزء الثالث في العدد السادس (ص 51-59) وبلغ حجم ما نشراه من هذا الشعر اثنين وخمسين نصاً في مئة وخمسين بيتاً، ثبتت صحة نسبتها إلى الخليل، وخمسة نصوص أخرى من الشعر المنسوب إلى الخليل وإلى غيره من الشعراء، وبلغ مجموع أبياتها أربعة عشر بيتاً. كما قام الباحث حاتم الضامن بمفرده بنشر عمل هام موسوم (شعراء مقلّون) في جزأين فأصدر الجزء الأول سنة 1987 والجزء الثاني عنوانه (عشرة شعراء مقلّون) وهذا سنة 1994، إضافة على عمل الباحث أحمد محمد البدوي في كتابه (الخليل بن أحمد الفراهيدي، سيرة ونصوص) وكانت هذه الأعمال مادة اتكأ عليها الباحثون في دراسة الجانب الشعري للخليل، كما استطاع هؤلاء

الباحثون استقصاء وتتبع الكثير من المقطوعات والأبيات المنسوبة للخليل فأدرجوها، فكانت مادة هامة للدراسة والتحقيق. كما واصل العمل في هذا الاتجاه الباحث (سعود عبد الجابر) في عمله له موسوم (شعر الخليل بن أحمد الفراهيدي جمع ودراسة وتحقيق) حيث جمع سبعة وستين نصاً شعرياً تنسب للخليل، وثمانية نصوص تنسب له ولغيره، ويقع هذا الشعر في بيتين ومئتي بيت، وبه زيادة أكثر من الربع عن الشعر المجموع والمنثور سابقاً.

ومع كلّ هذا فإنه شاعر مقلّ، فهو الذي يقول: الذي يجيئني لا أرضاه، والذي أرضاه لا يجيئني، ويُروى عنه قوله: إني كالسِّن أشحذ ولا أقطع. ومع كلّ ما يقال فقد نال شعره استحسان أغلب الأدباء والنقاد القدامى، وقال فيه ابن المعتزّ "وكان فطناً عالماً بأيام الناس وأخبارهم وكان مع ذلك **شاعراً مفلقاً** وأديباً بارعاً... **وشعره قليل** لأنّ شغله بالعلم كان أكثر منه بقول الشعر[51]". وإنّ طبعه غير مساعد له على التأليف المرضي الذي تحسن نسبته إلى مثله "وخلاصة القول فيما تقدّم إنّ تراجع طبع الخليل إزاء تحكّم عقله في اختيار الألفاظ هو الذي قلّل من شأن شاعريته، ومن مستواه الشعري، فقد ساعده تخصّصه العام في اللغة على معرفة حقائق الألفاظ، وكشف كنهها فواتاه أصعبها، ونبا عنه أسهلها

---

[51] - أبو هلال العسكري. ديوان المعاني. بغداد. مكتبة الأندلس.

فجاءت جافة خالية من العاطفة والروح الفنية في الأدب، وكان صعب عليه تأليفها ونظمها، فجاء شعره لذلك متكلفاً رديء الصنعة[52]".

والذي لا يمكن الخلاف فيه أن الخليل كان مقلاً في شعر، فيقول البيت أو البيتين، وأحياناً مقطوعة لا تتجاوز بضعة أبيات، ينظم هذه المقطوعات ليقضي حاجة يركزها في أضيق الحدود، ويستهدف منها قضية عروضية أو علمية أو أخلاقية، ولكنه مقتدر على الشعر الجيّد، حيث يتحرّى الدقة اللغوية التي تجعله يختار أصعب الألفاظ، كما يعمل العقل في صناعته النظمية، ويرجع هذا إلى قدرته الهائلة في النحو واللغة والعروض، وإلى ذكائه المتوقد الذي يظهر من بين ثنايا هذا العلم. "وشعر الخليل عامة شعر مقطوعات ولم يكن ينظم القصائد إلا ما روي أنه نظم قصيدة من تسعة أبيات، ويظهر في شعره أثر الطابع العقلي الذي أعمله بوعي كامل في نظم مقطوعاته الشعرية. في حين توارت عاطفته خلف ألق عقلانيته الفذّة، وشعره خلاصة تجارب عالم حكيم، استمدّ تجربته من علمه في تخصّصه في اللغة، وفي استخدامه له استخداماً تعليمياً وأخلاقياً في التعامل مع الناس من خلال القضايا التي كانت تعرض له منهم، ونظم في معظم البحور الشعرية، وقد ساعدته معرفته بعلم العروض على النظم فيها، وإن لم يأتِ عليها كلّها، فربما

---

52 - ليلى توفيق العمري "شعر الخليل بن أحمد الفراهيدي" الندوة الدولية.

كان ذلك لأسباب لم نتبيّنها، أو لأننا لم نعثر على بقية شعره وتتميز صياغته في المقطوعات بالإيجاز غير المخلّ والمباشرة في طرح الموضوع مباشرة اتخذت صفة التقرير وسمات الأسلوب العلم في الدقّة والوضوح واللفظ على قدر المعنى، وهي تنأى عن السمات الجمالية في الأدب مثل إيراد الصورة الفنية إلا في القليل منها[53]". ويطيب لي في هذا المقام انتقاء بعض الأبيات أو المقطوعات من مختلف ضروب الإبداع الشعري لنتوج الخليل، وإدراجها شواهد على قيمة شعر الخليل وعلى التحكّم الجيّد في اللغة وفي انتقاء الألفاظ المناسبة للمقامات المناسبة.

الزهد: ما يعرف عن الخليل أنه زاهد قانع بما كتب الله له، فلم يكن على حظ من اليسار والرفاهية، كان عفيف النفس، لا يختار صحبة الملوك، وذوي النفوذ زهد في العيش لم يلتفت إلى ما في الدنيا من متاع. فهو أزهد الناس وأعلاهم نفساً، وأشدّهم تعفّفاً، وشعره خير معبّر عن ذلك:

وما هي إلا ليلة ثمّ يومها ... وحول إلى حول وشهر إلى شهر

مطايا يقرّبن الجديد إلى البلى ... ويُدنين أشلاء الكريم إلى القبر

ويتركن أزواج الغيور لغيره ... ويقسمن ما يحوي الشحيح من الوفر

...

يعيش المرء في أمل ... يردّده إلى الأبد

---

[53] - ليلى توفيق العمري "شعر الخليل بن أحمد الفراهيدي جمع وتحقيق، الندوة الدولية.

يـؤمّـل مـا يـؤمّـل مـن صـنـوف الـمـال والـولـد
ولا يـدري لـعـلّ الـمو ت يـأتـي دون بـعـد غـد
فـلا يُـبـقـي لـوالده ولا يُـبـقـي عـلى ولـد

...

إن لـم يـكـن لـك لحم إن لا كـفـاك خـلٌ وزيـتُ
يـكـن ذا وهـذا فـكِـسـرة وبُـيـيـت
تـظـلّ فـيـه وتـأوي حـتـى يجيئك مـوت
هـذا لـعـمـري كـفـاف فـلا يـغـرّك لـيـتُ

...

أنـستُ بـوحدتي ولزمت بيتي فـطـاب الأنس لي ونـما السرور
فـأدّبـني الـزمـان فـلا أبالي هُـجـرت فـلا أُزار ولا أزور
ولـسـت بسائل ما دمت حياً أسـارَ الجـيش أم ركب الأمير

...

عـش ما بدا لك فقصرك الموت لا مـرحـل عـنـه ولا فـوتُ
بـيـن غِنـى بـيـت وبـهـجته زال الفـتـى وتـقـوّض البـيـت
يـا ليت شـعـري ما يُـراد بنا ولـقـلّـما ثـغـنـى إذا لـيـتُ

البخل: وقد انتقيت الأبيات التالية:

فكفاه لم تخلقا للندى ... ولم يكُ بُخلهما بدعه
فكفٌ عن الخير مقبوضة ... كما نقصت مائة تسعة
وكفٌ ثلاثة آلافها ... وتسع مئيها لها شرعة

.....

سئلوا فأبوا فلقد بخلوا ... ولبئس لعمرُك ما فعلوا
أبكيت على طلل طرباً ... فشجاك وأحزنك الطلل

الحكمة:

ربَ امرئ يجري ويدري بأنه ... إذا كان لا يدري جهول بما يجري
إذا كنت لا تدري ولم تكُ كالذي ... يشاور من يدري فكيف إذا تدري
جهلتَ فلم تدرِ بأنك جاهل ... وأنك لا تدري بأنه لا يدري
ومن أعظم البلوى بأنك جاهل ... فمن لي بأن تدري بأنك لا تدري

...

العلم يذكي عقولاً حين يصحبها ... وقد يزيدها طول التجاريب
وذو التأدب في الجهال مغترب ... يرى ويسمع ألوان الأعاجيب

...

يداك يد خيرها يرتجى ... وأخرى لأعدائها غائظة
فأما التي خيرها يُرتجى ... فأجود جوداً من اللافظة

وأمـا الـتـي يـتـبـقـى شـرّهـا ... فـنـفـس الـعـدد لـهـا فـائـظـة

...

إذا ضـيـقـت أمـراً زاد ضـيـقـاً ... وإن هـوّنـت صـعـب الأمر هانا

فـلا تـجـزع لأمـر ضـاق شيئاً ... فـكـم صـعـب تـشـدّد ثـمّ لانا

...

ورزق الـخـلـق مـجـلـوب إليهم ... مـقـادير يـقـدّرهـا الجـلـيل

مـتـاركـة الـلـئـيـم بلا جواب ... أشـدّ عـلـى الـلئـيم من السباب

...

* وقـبلك داوى الـطـبـيـبُ المريضَ ... فـعـاش الـمـريضُ ومات الطبيبُ

وكـن مـسـتـعداً لـدار الـفناء ... فـإنّ الـذي هـو آتٍ قـريـب

* لـو كنتَ تعلم ما أقول عذرتني ... أو كـنـتَ تـعلم ما تقول عذرتكا

لكـن جهلتَ مقـالـتي فعذلتني ... وعـلـمـتُ أنـك جاهلٌ فعذرتكا

* اعمل بعلمي، ولا تنظر إلى عملي ... فينفعك علمي، ولا يضرّك تقصيري

* إذا لـم تـسـتـطـعْ شيئاً فدعْهُ ... وجـاوِزْه إلـى مـا تـسـتـطيع

الحبّ: من هذا الضرب نقتطف المقطوعات التالية:

* وقـول إنـي قـد مـررت بطـفلة ... بيـضـاء تـستلب النفوس وتخلب

يصـرتـها فغضضتُ عنها ناظري ... خـوفَ القـصاص وظلّ قلبي يرغب

فتقول: إنّ بنات عمّك خرّد ... بيض الوجوه كأنهن الربرب

وما هي إلا ليلة ثمّ يومها ... وحول إلى حول وشهر إلى شهر

مطايا يقربن الجديد إلى البلى ... ويدنين أشلاء الكرام إلى القبر

ويتركن أزواج الغيور لغيره ... ويقسمن ما يحوي الشحيح من الوفر

...

يا ويح قلبي من دواعي الهوى ... إذا رحل الجيران عند الغروب

أتبعهم خرقي وقد أزمعوا ... ودمع عيني كفيض الغروب

كانوا وفيهم خفلة حرّة ... تفترّ عن مثل أقاصي الغروب*

...

يا ذا الذي في الحبّ يلحى أما ... والله لم حُمّلت منه كما

حمّلتُ من حبّ رخيم لما ... لمتُ على الحبّ فدعني وما

أخلب أني لست أدرب بما ... أجبت إلا أتني بينما

أنا بباب القصر في بعض ما ... أخلب من قصرهم إذ رمى

شبه غزال بسهام فما ... أخطا سهماه ولكنّما

عيناه سهمان له كلّما ... أراد قتلي بهم سلّما

...

* - نجد الخليل بشعره الجيّاش يلعب على كلمة (الغروب) فهي= غروب الشمس/ الدلو الملوءة/ الوهاد المنخفضة.

إنّ الـخـلـيـط تـصـدّع ... فـطِـر بـدائـك أو قـع

لـولا جـوارٍ حـسـانٌ ... حـوزُ الـمـدامـع أربـع

أم الـبـنـيـن وأسـمـا ... ء والـرَّبـاب يـوزّع

لـقـلـت لـلـراحـل: ارحل ... إذا بـدا لـك أو دع

الوصف: من هذا النوع نختار ما يلي:

ارفَعت عـن يد الأعماق وانخفضت ... عـن الـمعا خِش واستغنت بسقياها

فـالـتـفّ بـالزهر والريحان أسفلها ... ومـال بـالـنـخل والـرمـان أعـلاها

وصـار يـحـسـده فيها أصدقاؤه ... ولائـم لامَ فـيـها مـن تمنّـاها

أبـا مـعـاويـة اشـكر فضل واديها ... وكـلّما جـئتها فاعمر محـلاها

الأخلاق والقيم الإسلامية:

ورزق الـخـلـق مـجـلـوب إليهم ... مـقـاديـر يـقـدّرهـا الجـلـيـل

فـلا ذو الـمـال يُـرزقـه بعقل ... ولا بـالـمـال تـقـتـسـم الـعقول

مـا وهـب الله لامـرئ هـبـةً ... أفـضـل مـن عـقـله ومـن أدبـه

هـمـا حـيـاة الـفتى فإن عدما ... فـفـقـده فـي الـحياة أجمل به

الحِلم: وانتخب المقطوعات التالية:

ألزم نفسي الصفح عن كلّ مذنب ... وإن كـثـرت منه عليّ الجرائـم

وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثلَ مقاوم

فألما الذي فوقي فأعرف فضله ... وأتبع فيه الحقَ والحقُ لازمُ

وأما الذي مثلي فإن زلّ أو هفا ... تفضلتُ، إنّ الفضل بالعرّ حاكم

أما الذي دوني فإن قال: صنتُ ... عن إجابته غرضي وإن لامَ لائمُ

...

هبني أسأت كما زعمـ ... ـت، فأين عاخفةُ الأخوة؟

فإذا أسأتَ كما أسأ ... تُ، فأين فضلك والمروءة؟

...

غرٌّ جهول أصله ... حتى يوافي أجله

ومن دنا من حتفه ... لم تغن عنه حيله

لا يصحب الإنسان من ... دنياه إلا عمله

فضل العلم: ويقول فيه:

افخر وكاثر بالقري ... حة إنها فخر المكاثر

واعلم بأنّ العلم ما ... أوعيت في صحف الضمائر

...

عقل هذا المرء مرآ ... ة، ترى فيها فعاله

فإذا كان عليها ... صدأ فهم جهاله

وإذا أخلصه الله ... صقالاً وصفا له

فهي تعطي كل حيَ ... ناظر فيها مثاله

هي صورة الخليل العاقل الحليم الوقور الرقيق المحبّ تظهر في أشعار الحكمة والتعقّل والفهم العميق للحياة، وتدلّ على أنه تمرّس الدنيا وعاركها، فكان حكيماً موجّها في أقواله وعفيفاً في منافحاته ورقيقاً في شعره، ومحباً لحبيبه. بكلّ وفاء، إضافة إلى كثير من الأقوال هي محلّ حكم نثرية بليغة صيغت في قالب لغوي بسيط من مثل:

* ثلاثة تنسيني المصائب: مرّ الليالي، والمرأة الحسناء، ومحادثة الرجال.

* كن على مدارسة ما في قلبك أحرصَ منك على حفظ كتبك.

* إني لأغلق على بابي فما يجاوزه همّي.

* ما تضايق سمّ الخياط بمتحابين، ولا اتسعت الدنيا لمتباغضين.

* إذا أردت أن تعلّم العلمَ للنفس، فاجمعْ من كلّ شيء شيئاً، وإذا أردتَ أن تكون رأساً في العلم، فعليك بطريق واحد.

* تكثر من العلم لتعرفَ، وتقلّل منه لتحفَظ.

* الرجال أربعة: رجل يدري أنه يدري: ذلك هو العالم فسلُوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري، فذلك الناسي فذكّروه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك جاهل فعلّموه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فذلك الأحمقُ فارْفضوه.

* من قال لا أدري فقد أفتى.

* أربع تعرف بهنّ الآخرة: الصفح قبل الاستقالة، وتقديم حسن الظنّ قبل التهمة، والبذل قبل المسألة، ومخرج العذر قبل العتب.

* تلوموننى عن تأخّري في الجواب، فليس عيباً أن تؤخّر الجواب، العيب كلّ العيب أن يسرع العالم في الإجابة، ثمّ يكتشف أنْ كان مخطئاً، وإنّ خطأ العالم يضرب له الناسُ بالطبول، وهو عيد من أعياد الجهل.

* إذا أردت أن تعلم خطأ معلمك من صوابه، فجالس غيره.

* العلوم أقفال، والسؤالات مفاتيحها.

* إذا أخطأ بحضرتك من تعلم أنه يأنف بإرشادك فلا تردّ عليه خطأه، فإنك إذا نبّهته على خطئه أسرعت إفادته واكتسبت عداوته.

* الاحتفاظ بما في صدرك أولى من درس ما في كتابك.

* اجعل ما تكتب بيت مال، وما في صدرك للتفقه.

* ذاكرْ بعلمك تذكر ما عندك، وتستفيد ما ليس عندك.

* الناس في سجن ما لم يتمازحوا.

* الدنيا إضاعة، والحزم بضاعة، والإنصاف راحة واللجاج وقاحة.

* الدنيا أمد، والآخرة أبد.

* الناس أربعة فكلّم ثلاثة وواحداً لا تكلّمه: رجل يعلم وهو يعلم أنه يعلم فكلّمه ورجل يعلم ولا يعلم أنه يعلم فكلّمه، ورجل لا يعلم وهو يعلم أنه لا يعلم فكلّمه، ورجل لا يعلم وهو يرى أنه لا يعلم فلا تكلّمه.

في هذه المنتخبات البسيطة التي تنبع منها الحكمة البليغة، أحتاج إلى وقفة خشوع إزاء هذا الكلام البليغ الذي يحمل الصُدف الثمينة

فأراني أمام فصاحة تقطر من أعطاف قلمه، وتخطر البلاغة في أثواب حِكَمه، وتنزل المعاني الممتنعة من معاقل القرائح على حُكمه، وتقف جياد البداهة المتسرّعة حيرى قبل التوسّط في علمه، فيا خليلي لقد قطّعتَ قلبي، بهجر طال منك على الصليل، ولكتهم قالوا: إنّ التقطيع دأبُ الخليل، ومن هنا فقد عذرتك وعذرت نفسي، فأغمضت طرفي عن التقريظ لا عن القريض، فكان هذا الخير المقصد الجليل الذي عظم في الكتاب الأثير، حتى أطلقت عليه أوصاف: هلاّ ركبت البحر/ من أراد أن يعمل كتاباً بعد سيبويه فليستحي.

الخليل خارج الجزيرة العربية

إنّ مكانة الخليل عالية في المؤلفات المغربية فكتبه بضاعة منقولة من يد إلى يد، وأقواله متداولة مفهومة محتجّ بها، فقد اعتلى نفس المكانة التي حظي بها في المشرق. ومن ذلك نجد المؤلفات الأندلسية والمغاربية تعيد نفس الأقوال التي نقلتها عن المشرق، كما نجد مؤلفات عن الخليل كدراسات أكاديمية أو أبحاث تنحو نفس النحو الذي نحته الدراسات المشرقية، وكأننا في العصور الأولى نسترد البضاعة المشرقية ونعطي لها غلافنا، ونعيدها إليهم، وأذكر في هذا المقام قول ابن بسّام "إلا أنّ أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً[54]". ولكن هذا أحياناً يفيد في علم الخليل، بسبب الأثر الطيّب الذي أحدثه الخليل وسبقه للاختراع. ولقد تعدّى هذا الأثر المنطقة العربية إلى أن يُؤثر في اللغة والأدب العبريين، وربّما يعود هذا إلى الباحثين الرواد من اليهود الذين تتلمذوا عليه أو على طلابه، حتى أصبحت العربية عندهم هي المرجع في بناء قواعدهم اللغوية وفي شعرهم "إنّ عبقرية الخليل لم تقتصر على الإنجازات غير المسبوقة في

---

[54] - تح: إحسان عباس. بيروت: 1079. دار الثقافة. م1. ص 12.

تاريخ الحضارة العربية، بل كانت لها صفة العالمية؛ ذلك أنها أسهمت في تأسيس نتاج عبري علمي في مجالات عديدة منها مجال المعاجم والأصوات والصرف والنحو والعروض"[55]. وهكذا ظهر هذا الأثر في الترتيب المعجمي الذي أجراه الخليل في العين في معجم (ألف حاي جاءون) ومعجم (كتاب الحاوي) ومعجم (المشتمل) لأبي الفرج هارون، وهذه المعاجم اتبعت نظام التقليبات الذي استنبطه الخليل. كما دلّت الأبحاث الجادة على أنّ وجود الألفاظ الأجنبية في العربية بوسائل التأثير والتأثر لا يعيبها ولا ينقص من قيمتها؛ لأنّ التبادل الثقافي والحضاري بين الأمم أمر قائم، فلا شكّ أنّ ذلك يعمل على إثرائها. وكشفت الدراسات التي رصدت ألفاظ معجم العين على وجود ألفاظ فارسية وهذه الألفاظ مع مرور الزمن وما حدث لها من تغيّرات في بنيتها بدخول العربية واستعمالها ألفاظاً عربية معجمية جرت مجرى الألفاظ الفصيحة ولا يدل عليها دليل بأنها فارسية الأصل إلا الأمانة العلمية للمعجميين العرب الأوائل بدءاً من الخليل الذي أثبت في معجمه هذه الألفاظ بأصولها[56]".

---

[55] - سلوى ناظم "الخليل بن أحمد وأثره على اللغة والأدب العبريين" الندوة الدولية.

[56] - عمر الخزاعلة + عبد الكريم جرادات "الألفاظ الفارسية في معجم العين للخليل بن أحمد. جمع وتحليل" الندوة الدولية.

لقد جُبل الخليل على حبّ العلم، فجذبته البصرة التي كانت موطن العلم والحضارة والفصاحة، والتي لم يغادرها، ومع ذلك فإنّ له إلماماً بلغات بعض الأمم، وقد أعطاه ذكاؤه إلمامًا بالاستدلال عليها، فكبر على بعض الباحثين بأن يخرج من العرب من له هذه العقلية الطافحة النجيبة، وأرادوا أن ينسبوا ذلك إلى الأثر الأجنبي في ثقافة الخليل، وظهر ذلك جلياً في الكتاب وفي العروض والشعر، فكبر ما يقولون دون علم ودليل.

الخاتمة: إنّ الخليل أربك الخصوم في حرفة اللغة قبل الأحباب فكان أميرَ النحاة وما زال، وأضحى لعماد النحو مرفوعاً، وبات صاحبَ العصا التي ولجت طريقاً في اللغة وشقّت، وكانت كما كانت، وأمسى صخرةً أعيت الرجالَ انصداعُها، حيث كان بحرُه عميقاً، وما انفكّ علمُه مستمداً من حسنَ العربي الصافي، فأمسى الكتابُ الذي أملاه لا تعلق به هنةٌ ولا نقيصةٌ، ولا عثرةٌ تشين غلبة العرب الفِصاح المطبوعين على السليقة. فيا أيها الخليل، أنت الممدوح بهذا المقال، والثناء عليك معقود بما سربلته على العربية من فخر عملك الخلاّق، وبما أسديته من جميل على هذه اللغة التي حباها الرزّاق، فأنعمْ به من علم!

وما يمكن استخلاصه من خلال هذا العمل، ما يلي:

- إنّ الخليل عمل على الوصول إلى مصادر البحث الأصلية، وهذا بفضل المبادرة التي لا تعرف الكلل، وهي قصد مواطن الفصاحة، وإعادة النقول إلى أصحابها.

- إنّ الخليل عمل بمنهجية صارمة تعمل على شمولية المعالجة: بحيث تمكّن من الوقوف على جميع الآراء في المسألة الواحدة، ثمّ يعمل عقله في الاستنباط والتخريج والترجيح بما رسط عنده من تملّك آليات اللغة.

- إنّ الخليل استعان بمواهبه الخاصة: يتضحَ ممّا ترك لنا من أقوال وأعمال تميّزت بمجموعة من المواهب التي نمت بالدربة العلمية، وأمدّها ذكاؤه ورغبته في اجتناء الفوائد المعرفية، وما توفّر لديه من تأصيل العلوم.

- إنّ الخليل ببراعته في الإبداع اللغوي والنظم نجده موزعاً بين كم من أبيات شعرية تطغى عليها الحكمة والزهد فتراه.

- إنّ الخليل كما نعرف قد حُبّب إليه العلم، والنظر في دقائقه وجليله والغوص في حقائقه لإدراك دقائقه، والفحص في أصوله لمعرفة فروعه وقد أعمل فيه عقله الكبير كما تميّز بالجدّ والمثابرة، وترك الهجوع وتحمّل العناء الشديد في جمع مادة اللغة، وتبحرّ في هذا العلم الذي لم يأت إلا بجهد ومثابرة وجدّ، فهل يكون هذا الجيل وفياً لحرفة الأجداد وهل ينطبق علينا قول الشاعر:

سنا وإن كنا ذوي حسب ... يوماً على الأحساب نتكل

بني كما كانت أوائلنا ... تبني، ونفعل مثل ما فعلوا

وهكذا يأتي هذا العمل المتواضع الذي لا شكّ أنّ هنات لحقته ولكني رغبت طبعه وفاء لروح الخليل الطاهرة الذي تذكّرته اليونسكو هذه السنة (2006) وعدّ من الشخصيات العالمية. وترون أنني ما أعجلت النظر فيه، بقدر ما ركّزت على استجلاء الحقّ والواقع لشخصية تملك ذكاءً حاداً وسرعة حفظ، وقدرة على التذكّر وعدم النسيان، فكان يطارح الأسئلة ويتجاذب الحديث في عدة علوم، وكان يعرف غرائب المنقولات ودقائق الفنون الخفية. والحمد لله الذي أكمل القواعد اللغوية على الصواب، ونشكره على ما بلّغنا من جميل المآرب وبلوغ المقاصد، وأرجو أنني أفدت القرّاء بما جمعته حول الخليل، وبما وقع عليه من تحليل، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.